توماس ترانسترومر



الأعمال الشعرية الكاملة

نقلها إلى العربية: قاسم حمادي
أعاد قراءتها وقدم لها: أدونيس

بدايات

توماس ترانسترومر
الأعمال الشعرية الكاملة

توماس ترانسترومر

الأعمال الشعرية الكاملة

نقلها إلى العربية: قاسم حمادي

أعاد قراءتها وقدّم لها: أدونيس

الأعمال الشعرية الكاملة
للشاعر السويدي توماس ترانسترومر

Tomas Tranströmers Samlade Dikter Fängelse and
Den Stora Gåtan

ترجمة عن السويدية: قاسم حمادي
لوحة الغلاف للفنان السويدي: بيتر فراي Peter Freie
تصميم الغلاف: جمال سعيد- إخراج: رفيدا الخباز

الطبعة الأولى: ٢٠٠٥

بدايات
للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - جبلة - مجمع الروضة التجاري - هاتف: ٨٠١٤٢٤ -
دمشق - ص.ب: ٣٠٨٢٣ هاتف: ٢٢٢٢٨٥٢ - موبايل:٠٩٣_٥١٥٧٦١
E-mail:isprahmd@scs-net.org

الاستشارة الفكرية والأدبية : أدونيس

الإشراف العام: أسامة إسبر

توماس ترانسترومر

ولد توماس ترانسترومر في الخامس عشر من نيسان ١٩٣١ في العاصمة السويدية استوكهولم، وهو النجل الوحيد للصحافي والمصور يوستا، والمدرّسة هلمي ترانسترومر.

انفصل والداه وهو طفل. وترعرع في كنف والدته في منطقة سودور وسط استوكهولم ضمن بيئة اجتماعية تنتمي إلى الطبقة الوسطى بالقرب من سكن جده لوالدته، كارل هلمر فستربرغ البحار، الذي يقول عنه توماس إنه كان «من أفضل أصدقائي». فقد كان الأب الروحي لتوماس. وكان

يتقن اللغة السويدية الفصحى التي تركت أثراً كبيراً في أشعار توماس.

كان رفاقه في المدرسة يحرصون على عدم المساس بمشاعره كونه «بلا أب». فوالد توماس كان يلتقيه مرة كل عام، في ليلة عيد الميلاد.

باكراً أبدى توماس عشقه للشعر والموسيقى وبدأ خلال دراسته في ثانوية سودرا لاتين الشهيرة بكتابة الشعر.

لم يكن في يوم من الأيام متديناً ولكنه في الثالثة والعشرين من العمر باشر بدراسة تاريخ الأديان وتاريخ الأدب وعلم النفس في جامعة استوكهولم التي تخرج منها سنة ١٩٥٦.

وفي مطلع ١٩٦٠ عمل كطبيب نفساني في سجن روكستونا للقاصرين واستمر في المهنة ذاتها عند انتقال العائلة سنة ١٩٦٥ إلى مدينة فستروس حيث توظف في معهد سوق العمل. في الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني ١٩٩٠ أصيب توماس بشلل نصفي بسبب جلطة دماغية أفقدته القدرة على النطق. ولكن هذه الأزمة لم تمنعه من الاستمرار في كتابة الشعر بل تغلب عليها وأصدر عدة أعمال شعرية.

حـاز تومـاس على العـشرات مـن الجـوائز الأدبيـة

منها:

* جائزة بلمان ١٩٦٦

* جائزة افراليد ١٩٧٥

* جائزة رابطة ده نيو ١٩٧٩

* جائزة شلغرين ١٩٨١

* جائزة بترارکا ١٩٨١

* الجائزة الكبرى لتعزيز الأدب ١٩٨٢

* جائزة انيارا ١٩٨٥

* جائزة فرلين ١٩٨٧

* جائزة بيلوت ١٩٨٨

* الجائزة الأدبية لمجلس شورى دول الشمال ١٩٩٠

* جائزة نويشتادت الدولية للأدب (الولايات المتحدة الأمريكية)

* جائزة الأكاديمية السويدية لدول الشمال ١٩٩١ (معروفة باسم جائزة نوبل الصغرى)

* جائزة تجمع غوستاف فرودينغ للشعر ١٩٩٥

* جائزة أوغست ١٩٩٦

* الجائزة الأدبية للاتحاد الوطني للمزارعين ١٩٩٧

* جائزة رابطة ده نيو الكبرى ٢٠٠١

* جائزة التاج الذهبي ٢٠٠٣ (مقدونيا)

* جائزة نونينو الإيطالية ٢٠٠٤

* جائزة نجم الدب الأكبر ٢٠٠٤ (الصين)

إلى القارئ العربي

بقلم: توماس ترانسترومر

كنت كلما سُئِلْتُ عن نظرتي إلى الشعر المُتَرْجَم

أجيب أن الشعر الأصل هو في حد ذاته ترجمة.

القول الشعري بيان لقصيدة غير مرئية خلف

اللغات المتعارف عليها. لذا تصبح الترجمة إلى لغة

غريبة محاولة أخرى لتحقيق واقعية القصيدة الأصل.

تعرفت على شعر أدونيس من خلال ترجمته.

ففي العام ١٩٩٠ وصلتني نسخة موقعة من الترجمة

السويدية لكتابه «أغاني مهيار الدمشقي». وكان

ذلك الكتاب أول شعر قرأته بعد مروري بمرض

صعب وترك ذلك الكتاب أثراً عميقاً في نفسي.

وقتذاك لم أكن أتصور أنه سيأتي يوم يشارك فيه هذا الشاعر الكبير بترجمة أعمالي الشعرية الكاملة إلى العربية.

الآن، وبعد مرور سنوات عدة ها هي أعمالي الكاملة تنشر في اللغة العربية وأشعر بالفخر الكبير لذلك وأشكر أدونيس على جهوده الكريمة.

كما أنني أخص بالشكر الكبير قاسم حمادي الذي نقل هذه الأعمال من السويدية إلى العربية. وما قدمه كان أساسياً لإتمام هذا العمل الضخم. وقام بزيارة دارنا في استوكهولم مرات عدة وتشاورنا في أمور كثيرة تتعلق بالترجمة.

كانت جلساتنا ممتعة ومثيرة. . .سأتذكرها دائماً.

استوكهولم، آذار، ٢٠٠٥

مقدّمة

أدونيس

- ١ -

إذا كانت الصّورة «فجر الكلام»، كما يقول باشلار، فإنّنا نجد هذا الفَجر في شعر توماس ترانسترومر. ولئن كان التّعبيرُ الحيَ يرتبط بالقدرة على إبداع الصّور، فإنّنا نجد كذلك في هذا الشعر مثالاً فريداً عن هذا التّعبير.

- ٢ -

المجازُ مقترناً بالإيجاز،

والحداثةُ، موصولةً بالكلاسيكيّة،

والغريبُ، نابعاً من الأليف:

تلك هي ثنائيّاتٌ في شعر توماس ترانسترومر، أعدّها مفاتيحَ أساسية للدخول إلى عالمه الشعريّ، وللإحاطة به. فقلّما اجتمع الإيجاز والمجاز عند شاعرٍ كما يجتمعان عنده. وقلّما نرى هذا الاقترانَ العضويّ بين التأصُّلِ في الصرامَة الكلاسيكية، والانفتاحِ الأصيل على لغة الحداثَة، رؤيةً وكتابةً، كما نرى في شعره. وفي هذا كلّه، يبدو الأليفُ غريباً كأنّه يُخلَقُ للمرّة الأولى. ويبدو الغريبُ أليفاً، كما لو أنّه يُولَد أمامَ أعيننا، وبين أَحضاننا.

- ٣ -

الطّبيعةُ، الجذرُ، الشّجَرُ، العشب، البحرُ، الغيمُ، المطرُ، الثّلج، الحجَرُ، الطّيرُ. . . الخ،أشياءُ الحياة اليوميّة، من أَبسطِها إلى أكثرِها تعقيداً، الأشياءُ التي

أدّى العلم والتّقنيةُ إلى ابتكارِها واستخدامها: هذه كلّها، هي مَادَّةُ الشّاعر ـ إضافةً إلى عوالم الأنا الدّاخليّة، عوالم الشعور والمخيّلة، القلقُ والبحث والتّساؤل.

يَخْتَبِرُ هذا كلّه، يُعيدُ النّظَر فيه، ويمنحهُ شكلاً آخرَ ومعنىً آخر. بِحسٍ زمنيٍ تمتزج فيه الأزمنة، ويمتزج فيه الواقع بالمخيّلة. وبحسٍ تاريخيٍ، أفقيٍ وعموديٍ، وبِنَبْرَةٍ تبدو كأنها إيقاع اللّحظاتِ التي نعيشها يومياً.

ـ ٤ ـ

يَتَبَطّن الحِسُّ الشّعريّ عند ترانسترومر حِسّاً علمياً. فيما نقرؤه، نكتشف أنّ العلْمَ في شعره نَوعٌ من الجماليّةِ اللاّمَرْئيّة، تُواكب خفْيةً جماليّة الشعر

المرئيّة. وفيما نقرؤه في حركيّته المجازيّة، تتبيَّنُ كيف أنّ الواقعَ يبدو كأنّه ليس هو الذي «يخلقُ» الشعر، بل إنّ الشعر هو الذي «يخلق» الواقع. ويتجلى لنا كيف أنّ الواقع لا يبدو إلاّ متحرّكاً، كأنما هو حالاتٌ مُتَتابعة، كما لو أنّه يتكوّنُ في رؤيةٍ متحوّلة خياليّةٍ مجازيّة. ويُخيَّل إلينا أنَّ اللغة ـ المجاز، أو اللّغة ـ الصُّورة، هي، في آنٍ، بيتُ الواقع، وبيت الإنسان، وبيت العالم. وأنّ اللُّغةَ نفسَها «توّاقة للتغيير». وفقاً لتعبير ميْرلُو بونْتي. وأنّ المجازَ ليس مجرّدَ خَرْقٍ للعادة، وإنما هو كذلك خَرْقٌ للنظَام القائم، نظام العلاقات بين اللّغة والأشياء.

يمكن القولُ، في هذا المنظور، إنّ شعْرَ ترانسترومر قراءةٌ «علميّةٌ» لشعريّة العالم أو «لروحه» وقراءةٌ شعريةٌ لعلميّة العالم، أو «لمادّته». وهي قراءةٌ تتمّ

علىِ الحدّ الذي يَفْصِلُ ويجمعُ في آن: الأشياءَ التي يتعذّر التّعبير عنها من جهة، ولا يمكن الصَّمتُ عنها من جهة ثانية، كما يعبّر، أيْ بين القَوْلِ المستحيل والصّمت المستحيل.

في هذا كلّه، لا يفارقُنا الشّعورُ بأنّ الشعر والعِلْمَ غيرُ قادرين على «إدخال» الشّيء في الكلمة. فلا يَدْخُلُ في الكلمة غيرُ الظّاهر، والعَرَضيّ العابر. أمّا «الجوهر» فيظلُّ عَصيّاً وغامضا. ومن هنا أهميّة الحساسية «الصوفية» الخفيّة في شعره. مِن هنا كذلك، نفهم الحسّ الذي تقوم عليه جملته الشعرية: الكثَافة والشّفافة في آن.

ـ ٥ ـ

للقصيدة عند توماس ترانسترومر حضورٌ واقعيٌّ يُلْمَسُ فيه نبض الأشياءِ بتفاصِيلها، ومجازيٌّ يتحوّل

فيه الواقع إلى مُخيّلة. كلّ قصيدة لوحة: ظاهرها مُرَكّبٌ مضيءٌ من جُزَيْئاتِ الحياة اليوميّة، وباطِنُها إشعاعاتٌ وإشاراتٌ وتخيّلات.

إنّه حضورٌ يضعُ القارئَ مباشرةً في أحضان الكون. الكونُ مُصغَّرٌ واقعيٌّ في جسد القصيدة، أو هُوَ نَفَسٌ مَبْثُوثٌ فيها. إنّه حضورٌ يجعل القارئَ حاضراً هو كذلك، داخل ذاته، وفي الكون.

وليس هذا مجرّدَ حضورٍ فكريّ. إنّه كذلك وقبله، حضورٌ جماليّ، تفْصِحُ عنه العلاقات المفاجئة التي يقيمها بين الكلمة والكلمة، وبين الكلمة والواقع، والتي تبثّ في القصيدة الحيويّةَ والإشعاع. هكذا نشعر أنّ المسافة التي تفصل الذاتيّة عن الشّيء، أو التي تصِل بينهما، هي نفسُها المسافة التي يَتعانَقُ فيها

الأنا والآخر، بطريقةٍ تتحوّل فيها هذه المسافة نفسُها إلى معانقةٍ تغيبُ فيها الحدود والمسافات.

- ٦ -

يبدو الواقعُ الكونيّ في شعر ترانسترومر مرتبطاً بحياته اليوميّة، حاضراً في تجربته الكتابيّة والجماليّة. ومع أنّ القضايا التي يلامسها أو يثيرها في شعره غير تجريديّة، بل واقعيّة، فإنها منفصلةٌ، جَذْريًّا، عن ابتذاليّة الالتزام السياسيّ الإيديولوجيّ. إنّها مأخوذةٌ بواقعيّة الإنسان في كينونته. والبشر في هذه القضايا هم بشر الحياة اليوميّة. لا يتزيّنون بالسّياسة، ولا يزيّنونها. لا يرفعون بيارقَ النّضال، ولا يهزجونَ لأساطيره. إنهم بَشَرُ البيوتِ والشّوارع. بشَرُ العملِ، والتّأمّل، والعُزلة. بَشَرُ الوجود بآلامِه كلّها، وعذاباته

كلّها، وأفراحه كلّها. ونُسغ التساؤل والحَيْرة والقلقِ متدفّقٌ في شعره. ذلك أنّ النّظَر إلى واقع العالم، وواقع البشر لا يمكن، إذا كانَ عميقاً وحقيقياً إلا أن يجريَ فيه هذا النسْغ المأساويّ أو التّراجيديّ.

وإذْ عَرف توماس ترانسترومر كيف يصون شعره من الابتذال السّياسيّ ـ الإيديولوجيّ، فلإنّه كان يدرك أنّ الشعر يفقدُ أعمقَ ما فيه عندما تُصبح الغايَةُ منه إيصالَهُ أو نَقْلَهُ إلى الجمهور. فعندما يَخْتلطُ أو يتوحّد الشعر بالحَدثيّ العابر، أو عندما يتحوّل المُبتَذَل إلى وسيلةٍ لتسليط الضوء على الشعر ومنحه الشّهرة، فإنّ الشعر هو نفسه يُصبح مُبْتَذَلاً. الشعر نفسهُ هو الضّوء، وهو في ذاته الإضاءة. وهو، إذاً، يَحتاجُ بِالأَحْرى، إلى الظّل، ويحتاج، خصوصاً، إلى

الإقامة في اللّيل، ليل الحاسّة، والمادّة، واللاّمَرْئيّ. ولا يَعني هذا، في أية حالٍ، انفصالُه عن الحياة، وانسلاخُهُ من قُدْرَته على التّأثير في التّاريخ. وإنّما يعني، على العكس، انفصالَهُ عن السّائد، فكراً وعملاً، خصوصاً أنّ العملَ، اليوم، يُمليه ويحرّكه فكرٌ زائفٌ يتمثّل في الإعلام والدّعاوَة، وأنّ التّاريخ السّائد مجرّد أحداثٍ عابرة، بفعل وسائل الإعلام ذاتها.

- ٧ -

يحاول ترانسترومر أن يقول في شعره وضْعَهُ الإنسانيّ، وأن يقدم هذا الشعر بوصفه فنّاً يُفصح عن هذا الوضع. ولئن كانت جذوره الشعريّة منغرسةً في أرض الشعر، في أصوله الكلاسيكيّة والغنائيّة والرّمزيّة، فإنّه في الوقت نفسه يَنْخرطُ في حركيّة

الحداثة، واقفاً على عتبة المستقبل. وهو في ذلك لا يُصنَّف، ولا يُؤَسس في مدرسة. إنه، في آنٍ، واحدٌ ومُتَعَدِّدٌ. وفي هذا ما يُتيحُ لنا أن نَرى في شعره كيف أنّ المرئيَّ واللاّمرئيَّ تركيبٌ واحدٌ تنبعث منه ذات الشاعر، كأنها عطرٌ يَفوحُ من ورْدةِ العالم.

باريس، أوائل أيار، ٢٠٠٥

مقدمة المترجم

فجأة وجدت نفسي بين قطبين من أهم أقطاب الشعر العالمي، أجلس معهما، أناقشهما وأدخل نهريهما أشرب من مياه أفكارهما الشعرية. . .وأقول لم أرتو بعد.

توماس ترانسترومر يجلس خلف البيانو ويعزف بيده اليسرى، يبتسم، ينهض، ويدخل غرفة الجلوس التي غمرتها أشعة الشمس ونشرب الإكسبرسو سويةً ثم ننطلق للعمل.

نجحت خلال أشهر طويلة في أن أناقشه حول قصائده كلها، وأن أتبادل معه الأفكار والآراء في الأزمات العالمية دون أن يتفوه بكلمة واحدة. إنه رجل هزم

المرض الذي اختطف منه قدرة النطق ولكنه فشل في تجريده من القدرة على التخاطب. الإنسان القريب من الطبيعة ومفرداتها المسيطرة على أشعاره، الشاعر الذي تُرْجِم إلى أكثر من خمسين لغة عالمية، والمرشح الدائم لجائزة نوبل للأدب الذي لولاه لما كان هذا الشعر موجوداً والذي لولاه لما دخلت بيت القطب الأكبر في بيروت وعشت معه لأكثر من شهر ثم لاحقته إلى باريس من أجل الشعر ولكثرة شوقي للاجتماع به مجدداً.

أدونيس بحر الشعر الذي يكتفي بظل شجرة في صيف بيروت، الذي تشبعه تفاحة من جبال قصابين السورية لا يبخل على الشعر بألوان تزينه. أدونيس الكوني الذي لا ينحصر في فئة من الناس أو في مدينة

من المدن أو في بلد من البلدان، طائر لا يأتي إلا ويحمل في جناحيه رياح الربيع الدافئة. قصائد توماس ترانسترومر ما كانت لتكتمل ترجمتها لولا لمساته الشعرية.

وفي الظل يوجد دائماً ذلك الشخص الذي يساهم بفعالية وهذا ما قامت به السيدة مونيكا ترانسترومر، الزوجة التي وقفت مع توماس في أجمل وأصعب المراحل. مونيكا كانت طيلة فترة عملنا تنطق بأفكاره وتشرح ما يريده لإيصال هذه الترجمة الأولى من نوعها إلى القارئ العربي.

قاسم حمادي

استوكهولم ٢٨- نيسان - ٢٠٠٥

١٧ قصيدة

١٩٥٤

I

استهلال

اليقظة، قفزةٌ مظلّيةٌ من الحلم.
يهبط المسافر في مناطق الصباح الخضراء.
متحرّراً من الدوامة الخانقة.
تشتعل الأشياء. يُمَيِّزُ - من منظور القُبّرة
المختلج - مصابيح المنظومات الجذورية الجبارة التي تدوِّم في باطن الأرض.
لكن فوق الأرض - ينهض الاخضرار -
في مد مَداريّ - رافعاً ذراعيه، مصغياً
إلى إيقاعات مضخة غير مرئية. ثم يهبط
نحو الصيف، يستسلم للسقوط في فُوّهته المبهرة، منزلقاً إلى الأسفل
على امتداد آبار الحقب الخضراء الرطبة
مرتعشاً تحت طاقة الشمس. هكذا تتوقف
رحلته العمودية حالاً وتنبسط الأجنحة
لراحة عقاب فوق مياه تتدفق.
أنغام بوق العصر البرونزي
المطاردة تتدلى فوق عمق بلا قعر.

في ساعات النهار الأولى يمكن الوعي أن يسع العالم،
مثل يد تمسك بحجر دفأته الشمس.
يقف المسافر تحت الشجرة. ضوء كبير بعد سقوطه في دوامة
الموت: هل سيتمدد فوق رأسه؟

II

أرخبيل في الخريف

عاصفة

فجأة هنا يقابل الجوال
السنديانة العملاقة العتيقة،
كمثل أيِّلٍ متحجّرٍ بقرون طويلة،
مقابل القلعة المخضوضرة لمحيط أيلول.

عاصفةٌ من الشمال. ذلك هو الوقت الذي تنضج
فيه عناقيد الغبيراء.
يسمعُ، مستيقظاً في العتمة،
المجرات تتململ في مرابطها عالياً فوق الأشجار.

مساء ـ صباح

تعفنت صارية القمر، وتجعّد شراعه.
فيما وراء الماء يحوم نورس سكراناً.
مربع الفرضة الثقيل يتفحّم،
وتغرق أكمة العوسج في الظلمة.

في الخارج على الدرج.
لا يزال الفجر يقرع
سياجات البحر الصوانية، وتفرقع الشمس
على عتبة العالم. إلهة الصيف تتلمس
شبه مختنقة
طريقها في الرذاذ.

اللازمة

تحت نقطة دوران الصقر الثابتة
يتدحرج المحيط هادراً في الضوء،
يلوك بلا روية لجامه المجدول من طحالب البحر
ويحمحم زبداً على الشاطئ.

تتغطى الأرض بظلمة تقيسها
الخفافيش. يتوقّف الصقر ويتحوَّل إلى نجمة.
و يتدحرج المحيط إلى الأمام هادراً يحمحم
زبداً على الشاطئ.

III

خمسة مقاطع شعرية إلى ثورو

ها هو آخر كذلك هجر سور المدينة المثقلة
بحجارة شرهة.
ملح كالبلور هو الماء
المتساقط حول رؤوس كل اللاجئين الحقيقيين.

بدوار بطيء صعد الصمت
من قلب الأرض إلى هنا،
لكي يتأصّل وينمو،
ويظلل بتاجه الكثيف
درج رجل، تدفئه الشمس.

تسحق القدم بلا روية فطراً.
غيمة رعدية تكبر على أطرافه.
كمثل أبواق نحاسية، ترسل جذور الشجر المتلوي أنغاماً
تتبعثر فيها مذعورة أوراق الشجر.
المعطف الخفيف للخريف المضطرب هو هروبه،

يرفرف حتى تعود من الصقيع والرماد أيام هادئة في قطعان
تغسل براثنها في ماء النبع.

وهذا الذي رأى نبعاً حاراً ولم يصدقه أحد، يمضي
هارباً من بئر مردومة كمثل ثورو، و يعرف كيف يختفي
في أعماق اخضراره الداخلي،
ماكراً ومليئاً بالأمل.

غوغول

الستَرة بالية كمثل قطيع من الذئاب.
الوجه رخام.
يجلس وسط رسائله في غيضة تئن أخطاء وسخرية،
وقلبه يطير كمثل ورقة في الممرات القاحلة.

يتسلل الغروب الآن كثعلب على هذه الأرض،
ويشعل العشب في لحظة.
يمتلئ الفضاء بالقرون والبراثن، وفي الأسفل
تنزلق عربة الخيل كظل في حدائق أبي
المنوّرة.

تقع بطرسبرغ على خط العرض نفسه لموقع الإبادة
(هل رأيت الجميلة في برجها المائل)
وفي محيط الأحياء المتجمدة، لا يزال هذا البائس
يطوف بمعطفه كمثل قنديل البحر.

ها هو، مكفناً بالصيام، ذلك الذي كان في الماضي مطوَّقاً
بضحكات القطعان،
التي هاجرت منذ زمن بعيد إلى أقاليم تتخطّى
حدود الشجر.
مائدة البشر المتزعزعة.
انظر كيف تُعَلِّمُ العتمة مجرة الأرواح.
اصعدْ إذاً في عربتك النارية واهجر البلاد!

حكاية بحارة

هناك أيام شتائية بلا ثلج حيث المحيط جار
للمناطق الجبلية، يجثم بزينته من الريش الرمادي،
لحظة زرقاء خاطفة، وساعات طويلة بأمواج كالوشق الشاحب،
يبحث عبثاً عن متكأ على حصى الشاطىء.

في هذه الأيام يخرج حطام السفن من المحيط
بحثاً عن أصحابه، يقيم في ضوضاء المدينة، والبحارة الغرقى
يعومون باتجاه اليابسة، أكثر وهناً من دخان الغلايين.

(في الشمال تسرح حيوانات الوشق الأصيلة، بمخالبها المسنونة
وعيونها الحالمة. في الشمال حيث
يسكن الضوء في منجم ليلاً نهاراً

هناك يمكن الناجي الوحيد أن يجلس
أمام مدفئة نور الليل القطبي ويصغي

إلى موسيقى أولئك الذين ماتوا متجمدين.

اللازمة وطباقها

الدائرة الأكثر بعداً هي دائرة أسطورة. فيها يغرق السفّان عمودياً

بين

ظهور السمك البراقة.

ما أبعد ذلك عنّا! عندما يكون النهار

متقداً وفي قلق خانق

لظل الكونغو الأخضر حيث يحبس الرجال الزرق أنفاسهم

عندما يتكدس كل هذا الخشب العائم على امتداد النهر المتعرج

فوق قلب كسول.

تغير مفاجئ: تحت راحة الأجسام السماوية

تنزلق المراكب المربوطة بحبال طويلة.

الكوثل عال، في وضعية يائسة،

يتجه هيكل الحلم، أسود

مقابل شاطئ بلون أحمر وضاء.

تهوي السنوات مهملة، بسرعة

صامتة ـ كمثل ظلال عربة الجليد، كمثل كلب، ضخم
يمضي فوق الثلج
ويدرك الغابة.

تأمل مضطرب

عاصفة هوجاء تحرك أجنحة الطاحون
بوحشية في عتمة الليل،
وتطحن العدم. ـ تلك هي القوانين التي تسلبك النوم.
جوف القرش الرمادي، مصباحك الشاحب.

الذكريات الضبابية تهوي إلى أعماق المحيط
وتتجمّد في تماثيل غريبة.
الطحالب لوَّنت عكازك بالخضرة.
الراحل في البحر، يعود من جديد، متحجراً.

الحجارة

الحجارة التي رميناها أسمعها تسقط، واضحة كالبلور
عبر السنين. أفعال اللحظة المرتبكة،
تطير في الوادي
صارخة من قمة شجرة إلى أخرى، تصمت
في هواء أرق من هواء الحاضر، تنزلق
كمثل السنونو من قمة جبل إلى أخرى حتى تبلغ
السهول الأخيرة العالية على حدود الوجود. هناك تتساقط
أعمالنا كلها
متبلرة
في قعر لا أحد
إلا نحن.

تماسك

ناَمل هذه الشجرة الرمادية. سالت السماء

عبر أليافها إلى باطن الأرض

ام يبق غير عيمة متجعدة بعد أن ارتوت الأرض.

نضاء مسروق ينجدل في ضفائر الجذور ويلتفُّ اخضراراً. ـ

لحظات حرية خاطفة تتفتح في دواخلنا، وتدور

في دم آلهة القدر وتواصل دورانها.

صباح وممر

النورس، ربّان الشمس، يشق طريقه.
تحته الماء.
لا يزال العالم هاجعاً كحجر في الماء كثير الألوان.
يوم غير مفسر ـ أيام
تشبه أحرف الآزتيك!

الموسيقى. وأنا مسحور بسجادها الغوبليني،
رافع اليدين ـ كشخصية من
الفن الشعبي.

راحة في القيدوم الهادر

في صباح شتائي أشعر كيف تتقدم هذه الأرض متدحرجة.
على جدران البيت
تصلصل نسمة تهب من الأعماق.

خيمة الصمت تلبس الحركة.
دفقة سرية لسرب من الطيور المهاجرة.
من ظلام الشتاء،

تخرج زغردة من آلات خفية.
كمثل الوقوف تحت زيزفون الصيف العالي، وطنين
آلاف الأجنحة لحشرات
فوق رأسك.

الانقلاب اليومي

ثابتة تترصد نملة الغاب، وتستقصي اللاشيء.
ويُسْمَع اللاشيء فيما وراء قطرات أوراق شجر قاتمة
والخرير الليلي في مسيل الصيف الضيق.

تقف الصنوبرة مسننة كمثل عقرب الساعة.
تتوهج النملة في ظل الجبل.
صوت طائر!
وأخيراً.
بهدوء تتدحرج
عربة الغيوم.

IV

أغنية (*)

تكاثر الحشد الأبيض: طيور النورس تكشّر
في أشرعة قنبية لمراكب ميتة،
ملطخة بدخان الشواطئ المحظور.

إنذار إنذار! عن نفايات باخرة للنقل.
تجمعت الطيور وشكلت صارية
ترسل إشارات: «الفريسة هنا».

تطير النوارس على امتداد محيط
بحقول زرقاء تنزلق في الزبد.
في الجهة الأخرى يمر فسفوري إلى الشمس.
لكن سافر فايناموينن فيما قبل تاريخه، فوق امتداد البحار متألقاً
بأضواء الأزمنة العتيقة.
يمتطي حصانه. حوافر الخيل لا تطأها المياه أبداً.

(*) هذا العمل الخرافي مبني على الأغنية السادسة لملحمة كاليفالا الفنلندية التي ألفها الكاتب الفنلندي الياس لونروت (١٨٠٢ـ ١٨٨٤) الذي استحضر مضمونها من أشعار منتقولة شفهياً من الأزمنة القديمة.

ومن ورائه: غابة نشيده الخضراء.
حيث السنديان سبّاق بألف عام.
الطاحونة الكبيرة تدور بنشيد الطيور.
وكل شجرة سجينةُ حفيفها.
باكواز كبيرة تتلألأ في القمر
بينما يتوهج الصنوبر البعيد كالمنارة.

في ذلك الوقت ينهض الشخص الآخر بسحره
ويهرب السهم بعيداً عن مدى النظر،
بأغنية في ريشه تشبه رفاً من الطيور.

لحظة ميتة عندما تجمد الفرس فجأة،
وتتحطم فوق حدود المياه
كغيمة زرقاء تحت قرون استشعار الرعد.

ويهوي فاينامويننن بثقل في البحر
(ملاءة النجاة تمدها الجهات الأربع)
إنذار! إنذار بين طيور النورس عند الهبوط.
كمثل ما حدث لمن وقف دون خوف مسحوراً

في لوحة سعادته
مع إحدى عشرة حزمة منحنية من القمح.

في الأثير تدندن قمم الجبال المطمئنة،
على علو ثلاثة آلاف متر حيث تتنافس الغيوم.
سمك القرش المتخم يتمايل.

بقهقهة صامتة تحت سطح البحر.
(موت وانبعاث عندما تأتي الموجة)
تدور الريح على عجلتها، بسلام بين أوراق الشجر.

عند ذلك تدوي الرعدة في الأفق مختنقة
(كمثل جاموس هارب في غباره)
قبضة الظل تنغلق على الشجرة.

وتوقع ذلك المسحور وسط لوحة بهجته
حيث سماء المساء ظاهرة تتوهج خلف
قناع لخنزير الغيوم.
يحسده شبيهه فييرم

عقداً سرياً مع زوجته.
ويتجمَّعُ الظلُّ في مَدٍّ من الموج.

موجة مد سوداء تمتطيها النوارس.
ويئز القلب في أيسر السفينة فوق الأمواج المتكسِّرة.
موت وانبعاث عندما تأتي الموجة.

الحشود البيضاء تكاثرت: تجيء النوارس
في أشرعة قنبية لمراكب ميتة،
ملطخة بدخان الشواطئ المحظور.
النورس الأغبر: حربون بظهر مخملي.
يبدو عن قرب كأنه هيكل طمرته الثلوج
تومض بانتظام نبضاته الخفية.

أعصابه أعصاب طيار باردة. يحلق.
يحلم معلقاً في الهواء،
حلم صياد برصاصة منقار قاتلة.
يهبط بشراهة مزهوة نحو البحر،
وكمثل جورب يتمايل حول الفريسة،

بانقضاض
ثم يصعد كالمارد.

(الانبعاث هو علاقات قوى، أكثر
غموضاً من تجوال سمكة الأنكليس.
الشجرة اللا مرئية مزهرة.

وكمثل فقمة رمادية في سباتها تحت البحر،
ترتفع إلى سطح الماء وتتنفس
ثم تغوص في نوم مستمر - إلى الأعماق

وها هو النعسان في داخلي اتحد
سرياً مع هذه الحال وعاد
فيما كنت واقفاً ونظري مثبت على شيء آخر).

هدر محرك الديزل بين السرب،
على امتداد الجزيرة القاتمة، وشق الطيور
حيث الجوع أزهر في أشداق فاغرة.

بقيت أصواتها مسموعة، حتى حلول الظلام:
موسيقى غير مكتملة كتلك التي تخرج من
خندق الأوركسترا قبل أن يبدأ العرض.

ولكن فوق بحر ما قبل تاريخه كان فاينامويننن يعوم
متأرجحاً في قميصه الصوفي الممزّق، أو ممدداً
في سكون عالم المرايا حيث تتضاعف أحجام الطيور.
ومن بذرة متبقية، بعيدة
عن اليابسة، في نهاية البحر، تنبثق من
الأمواج ، ومن منحدر الضباب:

شجرة ضخمة بجذع محرشف، وأوراق
شفافة، وخلفها أشرعة بيضاء
مليئة بشموس بعيدة،

كانت تنزلق بنشوة.
وكان النسر قد حوّم عالياً.

V

مرثاة (*)

ن نقطة الانطلاق. كمثل تنين صريع في مستنقع،
ين الضباب والدخان، يمتد بلدنا الساحلي المكسو بالغابات
الصنوبرية. هناك في البعيد:
اخرتان تناديان من حلم

الضباب. إنه العالم السفلي.
ابة لا متحركة، سطح مياه راكد،
يد زهرة الأوركيديا الطالعة من التراب.
الجهة الأخرى، فيما وراء المضيق

ن معلقة بالانعكاس ذاته: السفينة،
مثل الغيمة المعلقة في فضائها المنعدم الجاذبية.
المياه حول جؤجؤها هامدة، راكدة.

(*) ...اة الإنسان القديم. عثر في صيف ١٩٣٦ في مستنقع في مدينة هالاند السويدية على جثة يعتقد أن صاحبها ... القرن الثاني عشر. كانت ملابسه بحالة جيدة وذلك بفضل أسيد الدبال الذي ساهم في الحفاظ عليها. وكشف ... ين ثبتا في داخل الجسد كي لا ينهض الميت من جديد.

العاصفة رغم ذلك عنيفة!

ودخان البواخر يتصاعد أفقياً إلى البعيد ـ
حيث الشمس تتموج في قبضته ـ والريح
تهب بقوة على وجه من يرسي السفينة.
صعود إلى جانب الموت في يسار السفينة.

مجرى هواء مفاجئ تتطاير فيه الستائر.
يرن الصمت كالمنبه.
مجرى هواء مفاجئ تتطاير فيه الستائر.
إلى أن يُسْمَع في البعيد صوت الباب يُغلق مرة أخرى،
بعيداً في عام آخر.

❖

آه أيتها الأرض الرمادية كمثل معطف إنسان المستنقعات.
والجزيرة القاتمة تعوم في البخار المحيط.
حيث يخيم الصمت كمثل رادار يدور في الإهمال
دورة بعد أخرى.

هناك ملتقى طرق لكل لحظة.
موسيقى الأبعاد تتدفق وتتلاقى فيه.
الأشياء تتمازج وتنمو شجرة كثيفة،
تلألأ بين أغصانها مدن بادت.
من كل مكان ومن لا مكان تعلو موسيقى
كصوت صراصير الليل في آب.
ورقد المسافر المقتول كخنفساء الغابة،
هنا في الليل بين المستنقعات.
النسغ
يدفع أفكاره صعوداً إلى النجوم. وفي عمق
الجبل: مغارة الخفافيش.
هنا تتدلى السنوات والأعمال متراصفة.
هنا تهجع مطوية الأجنحة.

يوماً ما ستمضي. دوامة!
(من بعيد يخرج ما يشبه الدخان من فوهة المغارة)
ولكن حتى الآن لا يزال نعاس صيف الشتاء مخيماً.
من بعيد خرير المياه. وفي الشجرة المظلمة

ورقة تتقلب.

❖

في صباح صيفي يرتطم محراث الفلاح
بعظام ميتة وملابس مهترئة. ـ إنه هنا إذاً
منذ أن جفَّت المستنقعات،
والآن ينهض ليكملَ طريقه في الضوء.

في كل مقاطعة تدور البذور الذهبية حول
خطيئة قديمة. في الحقل جمجمة مصفَّحة بخوذة.
جوال على الطريق
يلاحقه الجبل بنظراته.

في كل مقاطعة تدمدم بندقية الصياد في
منتصف الليل عندما تنفتح الأجنحة
ويكبر الماضي لحظة سقوطه أكثر
سواداً من نيزك القلب.

الشبح المتلفت يجعل الكتابة شرهة.
ورق يصطفق. تلتف الأجنحة
حول الفريسة. يا لها من رحلة نبيلة!
حيث القطرس يشيخ في غيمة

في شدق الزمن. الثقافة محطة لصيد الحيتان،
حيث الغريب الذي يتنزه بين واجهات بيوت
ونساء وأطفال يلعبون يتحسس كلما تنفَّس حضور العملاق
المقتول.

بهدوءٍ يرتد صدى زواج الحجل في الفضاءات السماوية.
الموسيقى بريئة في ظلنا،
كماء الينبوع المتفجّر بين الحيوانات البرية،
المتحجّرة بشكل فني حول تدفق الماء.

بأقواس مموّهة بشكل غابة.
بأقواس كحبال الأشرعة تحت مطر غزير ـ
وتغرق القُمرة تحت حوافر المطر ـ
والفرح في المدوار في الداخل.

في المساء ينعكس هدوء العالم
عندما تتهيأ الأقواس لكنها لا تتحرك.
جامدة في الضباب أشجار الغابة
وسهوب المياه تعكس صورها.

نصف الموسيقى الصامت موجود هنا، كرائحة
صمغ يحيط أشجار الصنوبر التي جرحتها الصاعقة.
ثمة صيف من باطن الأرض في كل فرد منا.
حيث يتفكك في المفترق الظل الذي

يندفع باتجاه أبواق باخ.
الرحمة تمنح ثقة مفاجئة. لِيُتْرَكَ
لباس الأنا التنكري على هذا الشاطئ،
حيث يرتطم الموج ويهدأ، يرتطم
ويهدأ.

خاتمة

ديسمبر. السويد سفينةٌ
مسحوبةٌ ومنهكةٌ. بصعوبة ترتفع صواريها في اتجاه السماء
الشفقي.
ويطول الغروب
أكثر من النهار. الطريق المؤدية إلى هنا مرصوفة بالحصى:
لا يصل الضوء إلا في منتصف النهار
انذاك يظهر معه مدرج الشتاء في
ضوء غيوم أسطورية. في الوقت نفسه يتصاعد
من القرى دخان أبيض يبعث على الدوار.
تقف الغيوم على علو بلا نهاية.
قرب جذور الشجرة السماوية يتحرى البحر
ضائعاً، كأنه يتنصت على شيء ما.
(يسافر طائر غير مرئي فوق نصف الروح السوداء المحولة،
ويوقظ النيام بصراخه.
ثم يدور التلسكوب كاسر الأشعة، ويلتقط

زمناً آخر، وفجأة الصيف: الجبال تخور،
متخمة بالنور، ويرفع الجدول أشعة الشمس بيده الشفافة. . .
بعد ذلك يختفي كل شيء. كمشهد صور يتوقف في العتمة).

الآن تخترق نجمة المساء الغيمة.
الأشجار، وأسيجة المزارع، والبيوت تكبر، وتنمو
في صمت الانهيار الثلجي المعتم.
تحت النجمة تبدو بوضوح أكثر فأكثر طبيعة أخرى،
خفية تعيش حياة الكفاف على صفيحة الليل الشعاعية.
ظل يجر مزلجته بين البيوت.
إنهم ينتظرون.

في السادسة مساء تأتي الريح.
تعدو إلى الأمام هادرة في شارع القرية،
وفي العتمة، كفرقة خيالة. كيف يمكن
القلق الأسود أن يعزف ويضمحل!
تبقى البيوت سجينة رقص ثابت
في صخب يشبه ضوضاء الحلم.
صعقة هوائية

بعد أخرى تطوف فوق الخليج باتجاه
البحيرة المفتوحة وترتمي في أحضان العتمة.
تلوح النجوم في الفضاء يائسة.
تشتعل وتنطفىء تحت غيوم تتقدم،
ولا تكشف عن وجودها إلا عندما تحجب الضوء،
كمثل الغيوم القديمة التي تجوب الأرواح. عندما أمر
بمحاذاة الإسطبل، تسمع من خلال الرعد،
دعسات الحصان المريض في الداخل.
العاصفة تؤذن بالرحيل، قرب سياج مكسور
يطرق ويطرق، ومصباح في اليد يتمايل، حيوان
يقوقئ مرعوباً في الجبل. رحيل عندما يهدر ما يشبه الصاعقة فوق
سقوف الحظيرة،
ويصفر في أسلاك الهاتف، ويزمزم بحدة
تحت القرميد فوق سقف الليل،
وترمي الشجرة أغصانها يائسة.
نغم ينطلق من مزمار القرية!
نغم يتقدم من مزمار القرية محرراً.
موكب. غابة زاحفة!
هذا كله ينبجس حول الجؤجؤ، وتتقدم العتمة،

وتسافر معاً اليابسة والماء. والأموات، الذين نزلوا
تحت المركب، برفقتنا، معنا في الطريق: رحلة بحرية،
رحلة ليست إقلاقاً، بل طمأنينة.

ولا يتوقف العالم عن الرحيل.
في يوم صيفي تُمسك الريح بجذع السنديانة
ويقذف بالأرض إلى الأمام.
خفية يجدف النيلوفر بعوامته
في حضن مستنقع أسود هارب.
صخرة تائهة تتدحرج في قاعات الفضاء.
في الغسق صيفاً تُشَاهَدُ جزرٌ تعلو فوق الأفق.
قرى عتيقة على الطريق، تدخل في عمق الغابات
على دولاب الفصول ومع نعيق الغراب.
عندما تخلع السنين جزمتها،
وتَتَسلَّقُ الشَّمْسُ إلى الأعلى، يتغطّى
الشجر بالورق وتمتلئُ بالرياح لتبحر بحرية.
عند قدم الجبل تنهض الأغصان المتكسّرة من غابات الصنوبر،
ولكن موجة الصيف الطويلة الدافئة تأتي،
لتمر بهدوء عبر أعالي الشجر، ترتاح لحظات

ثم تهوي مجدداً ـ

شاطىء عار لا يزال في مكانه. ختاماً:

روح الله كالنيل، تفيض وتنخفض

بلحن منتظم من نصوص أزمنة مختلفة.

ولكنه أيضاً ثابت، لهذا تندر مشاهدته هنا.

يقطع موكبٌ الطريق جانبياً.

كالباخرة العابرة في الضباب دون أن يشعر

الضباب بها. صمت.

نور الأضواء الشاحبة هو الإشارة.

أسرار على الطريق

١٩٥٨

I

بيوت سويدية منعزلة

فوضى صنوبر أسود وأشعة
قمر دخانية.
ورقد الكوخ غارقاً،
كأنه بلا حياة.

إلى أن يهمس ندى الصباح
ويفتح شيخٌ النافذة
بيد مرتجفة -
مطلقاً بومة الجبل.

وفي جهة أخرى للريح
تقف العمارة الجديدة، وتدخن،
مع فراشة حبل الغسيل
التي ترفرف في الزاوية،
في منتصف غابةٍ تحتضر،

حيث يقرأ التعفن
بنظارات النسغ
بيان الخنافس.
مطر صيف بخيوط كتانية،
أو غيمة رعدية واحدة
فوق كلب ينبح.
البزرة ترفس التربة.

أصوات منفعلة، وجوه
تطير عبر أسلاك الهاتف
بأجنحة مبتورة سريعة،
فوق أميال المستنقعات.

المنزل على جزيرة في النهر يحضن
أحجاره الأولى.
دخان مستمر- تحرق
وثائق الغابة، السرية.

يعود المطر أدراجه في السماء،

والضوء يتلوّى في النهر.
بيت المنحدر يحرس
ثيران الشلال، البيضاء.

خريف بحشد زرازير
تمنع الفجر من العمل.
يتحرك الناس متيبسين على مسرح
أضواء النوافذ.

اتركهم يشعرون دون خوف بالأجنحة المموّهة
وطاقةُ الله
مُكَوَّرَةٌ في العتمة.

هو الذي أيقظته أغنية على السطوح

صباح، مطر أيار. لا تزال المدينة هادئة
كمدجنة ريفية. الشوارع هادئة. وفي السماء
يهدر محرك طائرة، أخضر مزرقّاً. ـ
النافذة مشرعة.

الحلم، حيث يرقد النائم
يصبح شفافاً. يتحرك الرجل
ويتلمس طريق أدوات الانتباه ـ
تقريباً في الفضاء.

لوحة الطقس

يتلألأ محيط أكتوبر بارداً
بزعانف أوهامه.

لم يبقَ شيءٌ يُذَكِّر
بالدوار الأبيض لسباق الزوارق.

شعاع كهرماني فوق القرية.
بطيئة تهرب الأصوات كلها.

أحرفٌ هيروغليفية لنباحٍ رُسِمَتْ
في الهواء فوق الحديقة،

حيث تخدع الفاكهة الصفراء
الشجرة وتسقط.

الأمزجة الأربعة

العين المنقبة تحول خيوط الشمس إلى هراوات شرطة.
مساء: حفلة هرج في الطابق السفلي
يطلع كأزهار وهمية عبر أرضية البيت.

مشيت في السهل. ظلام. كأن العربة لا يمكنها الخروج من الوحل.
كانت فزاعة تصرخ في فراغ النجوم.
وقفت الشمس البهقاء فوق بحيرات معتمة تتقلب.

❖

رجل كمثل شجرة مجتثة بأوراق ناعبة
وصاعقة متأهبة، شاهدا شمساً
برائحة حيوان وحشي، تنهض
بين الأجنحة المدوية فوق جزيرة

العالم الصخرية، متدفقة خلف رايات من زبد
ليلاً نهاراً مع طيور بحرية بيضاء
تصرخ على ظهر المركب، وكل يحمل بطاقة إلى الفوضى.

يكفي إغماض العينين لسماع
النوارس تدق أجراس الأحد فوق هدير خورانيات المحيط
اللا نهائية.
قيثار ينقر أوتار الدغل، والغيمة فتمضي

بطيئة، كمزلجة خضراء في ربيع متأخر
- حيث يسرج الضوء المحمحم -
وتصل منزلقة على الجليد.

❖

استيقظ على وقع لكعب صديقته يقرقع في الحلم،
وفي الخارج حمامتا ثلج كمثل قفاز شتاء منسي،
فيما تنهمر فوق المدينة مناشير الشمس.

لا ينتهي الطريق أبداً. الأفق يسرع إلى الأمام.
الطيور ترج الأغصان. الغبار يدوم حول العجلة.
كل هذه العجلات الدائرة، التي ترفض الموت.

ألحان حرة

يهبط الظلام على هيولفا: نخيل يغطيه السخام
صفير قطار مسرع،
لخفافيش فضية.

امتلأت الشوارع بالناس.
والسيدة المسرعة في الزحام، تزنُ
بعنايةٍ آخرِ ومضات ضوء النهار بميزان عينيها.

نوافذ المكتب مشرعة. لا تزال
دعسات الحصان تُسْمَع في الداخل.
الحصان الهرم ذو الحوافر الدامغة.

لا تخلو الشوارع إلا بعد منتصف الليل.
أخيراً، ازرقت كل المكاتب.

وعالياً في الفضاء:

يخب بصمت، متلألئاً وأسود
حراً وغير مرئي
بعد أن سقط خيّاله:
كوكب جديد أسميه «الفرس».

II

قيلولة

ـنصرة الحجر. والألسنة التي تنش. . .
المدينة بلا وزن في فضاء الظهيرة.
ـنر قبور في ضوء باهر. طبل يسكت
دقات الأبدية المسجونة.

ـاو النسر، يعلو فوق النائمين.
ـوم حيث يدور دولاب الطاحون كالرعد.
ـمسات حصان معصوب العينين.
دقات الأبدية المسجونة.

النائمون معلقون كالثقالة في ساعة الطغاة.
ـدور النسر ميتاً في تيار سيل الشمس الأبيض.
ـي الزمن تدوي ـ كما في تابوت ألعيزار ـ
دقات الأبدية المسجونة.

إزمير في الساعة الثالثة

قبل الشارع المقبل المقفر،
متسولان، الأول بلا ساقين
يحمله الثاني على ظهره.

وقفا ـ كمثل حيوان على الطريق في منتصف الليل يحدق مبهوراً
بأضواء سيارة ـ
وبعد لحظة أكملا طريقهما

وعبرا الشارع بسرعة
كمثل أولادٍ في ملعب المدرسة،
بينما ملايين
الساعات من حرارة الظهيرة تدق في الفضاء.

زرقة انزلقت وامضة فوق حوض المرفأ.
سواد زحف ثم تضاءل، محدقاً من داخل حجر.

بياض يهب عاصفة في العيون.
عندما دقت الحوافر الساعة الثالثة
واصطدمت العتمة بجدار الضوء،
كانت المدينة تزحف على باب البحر

وتومض في مرمى النسر.

III

أسرار على الطريق

ارتطم ضوء النهار بوجه النائم.
فازداد حلمه حيوية
لكنه لم يستيقظ.

ارتطمت العتمة بوجه من كان
يمشي بين الآخرين تحت
خيوط شمس جزعة وكثيفة.

فجأة أظلمت، كهطول مطرٍ غزير.
كنت في مكان يَتَّسِعُ للّحظاتِ كلها ـ
متحف فراشات.

ومع ذلك لا تزال الشمس حادة كما كانت.
كانت ريشتها المتلهفة ترسم العالم.

آثار

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل: ضوء القمر. توقف
القطار في منتصف السهل. في البعيد نقاط ضوء
في مدينة تتلألأ ببرودة على تخوم النظر.

كما يذهب إنسان بعيداً في الحلم فلا
يتذكر أنه كان فيه
عندما يعود إلى غرفته

وكما يذهب إنسان بعيداً في المرض ،
فينقلب جوهر الأيام إلى شرارات
كتلة،
باردة ودون معنى على تخوم النظر.

القطار واقف جامداً تماماً.
الساعة الثانية: ضوء قمر كثيف، ونجوم نادرة.

ابتهال

أحياناً كانت حياتي تفتح عينيها في الظلمات.
عندما كنت أرى حشوداً عمياء مضطربة تمر في الشوارع
بحثاً عن معجزة،
كنت أقف لا مرئياً.

ومثل الطفل عندما ينام مرتعباً
مصغياً إلى خطوات قلب ثقيلة.
طويلاً، طويلاً إلى أن يقذف الصباح خيوط الضوء
في الأقفال وتنفتح أبواب الظلمات.

IV

رجل من بنين

(حول صورة لمنحوتة برونزية من القرن السادس عشر من مملكة الزنوج في بنين،تمثل يهودياً برتغالياً)

عندما هبط الليل كنت جامداً،
لكن ظلي كان يضرب
طبالة اليأس.
عندما كانت الضربات تتبعثر
رأيت صورةً لصورةٍ
على ظهر
على الصفحة الخالية
التي تركَتْ مفتوحة.

كأنني كنت أحاذي بيتاً

مهجوراً منذ زمن بعيد

وأرى شخصاً يظهر في النافذة.

غريب. كان دليلنا.

بدا متيقظاً.

اقترب دون أن يخطو.

بقبعة كُوِّرَتْ

على مثال نصف كرتنا الأرضية

طرفها على خط الاستواء.

الشعر مقسوم إلى زعنفتين.

واللحية تتدلى متجعدة

ببلاغة حول الفم.

كان يرفع بالتواء ذراعه الأيمن.

الضعيف كذراع طفل.

والنسر الذي كان يفترض أن يجد مكانه

فوق يده كان يُسْتَشَفُ

، تقاسيم وجهه.

إنه السفير.

وطلع في منتصف الخطاب،

الذي واصله الصمت

يد من القوة.

انت ثلاث قبائل صامتة فيه.

ان على صورة شعوب ثلاثة.

يهودي من البرتغال،

ر بعيداً مع آخرين،

ائهين منتظرين

ليع متكوم

في هذه السفينة الشراعية

التي أصبحت أمهم الخشبية المتأرجحة.

الرصيف وهذه الروائح الغريبة

التي تملأ الهواء بالوبر.

الفنان صانع السبائك رآه زنجي في السوق.

وأبقاه طويلاً في محجر عينيه.

بعث مجدداً في سلالة المعدن:

«أنا قادم لكي أقابل من سيرفع مصباحه ليرى نفسه فيّ».

حلم بالاكيرف(*)

(١٩٠٥)

كان البيانو الأسود، هذا العنكبوت البراق
يرتجف في وسط شبكته الموسيقية.

كان بلد يرن في قاعة العزف،
حيث لم تكن الحجارة أثقل من الندى.

مع ذلك نام بالاكيرف في أثناء العزف
وحلم بعربة القيصر.

كانت تسير على الطريق المرصوفة

(*) [illegible] بالاكيرف: موسيقار روسي ١٨٣٧ـ١٩١٠.

كان وحيداً في العربة ينظر إلى الخارج،

ولكنه كان يركض أيضاً إلى جانبها على الطريق.

كان يعلم أن الرحلة استمرت طويلاً،

ولم تكن ساعته تظهر الساعات بل السنوات.

رأى حقلاً يجثم فيه محراث،

لم يكن إلا طائراً سقط على الأرض.

رأى خليجاً صغيراً ترسو فيه باخرة متجمدة،

منطفئة، تحمل بشراً.

كانت العربة تنزلق هنالك فوق الجليد وكانت عجلاتها

تفتل وتفتل بصخب حريري.

بارجة حربية صغيرة: «سباستوبول».

كان هو على متنها. تقدم طاقمها.

«ستنجو إن كنت تعرف العزف»

وأظهروا له آلة موسيقية غريبة.

كانت تشبه بوق التوبا، أو فونوغرافاً،

أو جزءاً من آلة يجهلها.

انقبض من الخوف يأساً وأدرك:

إنها آلة لقيادة البواخر الحربية.

التفت إلى أقرب بحّار،

وأشار بيده يائساً متوسلاً:

«ارسم إشارة الصليب مثلي، إشارة الصليب»

حدق فيه البحار بحزن كالأعمى،

ماداً ذراعيه، خافضاً رأسه -

وبقي متدلياً كأنه مُسمَّرٌ في الهواء.

قُرِعَت الطبول. قُرِعَت الطبول. تصفيق!

استيقظ بالاكيرف من حلمه.

أجنحة التصفيق دَوَّتْ في القاعة.

شاهد الرجل ينهض قرب البيانو.

كانت الطرقات في الخارج قاتمة بسبب الإضراب.

مضت العربات مسرعة في العتمة.

V

بعد النوبة

هذا الولد المريض.
مُقَيَّد في مشهد،
ولسانُه متيبِّس كالقرن.

يجلس مديراً ظهره للوحة حقل من القمح.
حول فكيه ضمادة تذكر بضمادة مومياثية.
نظاراته سميكة كنظارات غواص. وكل شيء
بلا جواب
كثيف كمثل هاتف يرن في الظلمة.

لكن اللوحة خلفه. إنها طبيعة صامتة توحي بالهدوء غير أن
القمح يوحي بعاصفة ذهبية.
سماء زرقاء نارية وغيوم سابحة. وفي الأسفل، في اللج الأصفر
تبحر بعض القمصان البيضاء: حصادون - لا ظلال لهم.

بعيداً في الحقل شخص يبدو كأنه ينظر إلى هذه الجهة.

تحجب وجهه قبعة عريضة.

يبدو أنه يراقب الخيال المظلم هنا في الغرفة،

ربما لكي يساعده.

خفية بدأت اللوحة تكبر وتنفتح خلف

المريض

المتهدم. قرع مطارق وشرارات. كأنما اشتعلت السنابل كلها

لكي توقظه!

والآخر- في القمح - يقوم بإشارة.

اقترب.

لا أحد رأى.

قواعد السفر

(البلقان ـ ١٩٥٥)

I

أصوات تهمهم خلف الحارث.
لا يتلفت. حقول مقفرة.
أصوات تهمهم خلف الحارث.
تتحرر الظلال رويداً رويداً
وتسقط في هاوية سماء الصيف.

II

أربعة ثيران تتقدم تحت السماء.
لا شيء فيها للفخر. والغبار
كثيف كالصوف. أقلام الحشرات تصر.

زحمة خيول، نحيلة
كأنها في قصة رمزية شاحبة، عن الطاعون.
لا نعومة فيها. والشمس تُدَوِّمُ.

III

قرية لها رائحة إسطبل وكلاب هزيلة.
مندوب الحزب في ساحة القرية
التي لها رائحة إسطبل وبيوتها بيضاء.

سماؤه ترافقه: شاهقة وضيقة
كقلب مئذنة.
قرية تجر أجنحتها على منحدر الجبل.

IV

بيت عتيق أطلق النار على جبينه.
ولدان يقذفان الكرة عند الغروب.
سرب من أصداء سريعة. ـ فجأة سماء صافية.

V

على الطريق في الظلمة الطويلة. بعناد تومض ساعة يدي
بحشرة الزمن المسجونة.

المركبة المزدحمة مليئة بالصمت.
في العتمة تسير المروج متدفقة.

الكاتب مع ذلك في منتصف صورته
التي يتنقل فيها معاً نسر وخلد.

السماء نصف المكتملة

١٩٦٢

I

الزوجان

يطفئان المصباح فتومض ظلته البيضاء
لحظات قبل أن تذوب
كقرص دواء في كوب ظلام. ثم يصعد.
جدران الفندق تعلو في سماء العتمة.

تراخت حركات الحب، ينامان
لكن أفكارهما الأكثر حميمية تتلاقى
كمثل لونين يتمازجان
على ورقة مبللة لرسم طفل في المدرسة.

ظلام وهدوء. ولكن المدينة تبدو هذه الليلة أكثر اقتراباً.
نوافذها مطفأة. جاءت البيوت.
متراصة في انتظار مزدحم،
حشد من البشر بوجوه مغلقة.

الشجرة والسماء

شجرة تمشي تحت المطر،
تمر حولنا في الغدق الرمادي.
إنها في مهمة. تنقل الحياة من المطر
كمثل شحرور في الحديقة.

عندما يتوقف المطر تتوقف هي.
تتلألأ وديعة ومستقيمة في الليالي الصافية
تنتظر مثلنا، لحظة
ازدهار ندف الثلج في الفضاء.

وجهاً لوجه

في شباط كانت الحياة جامدة.
كانت الطيور تحلق مكرهة، والروح
تحتك بالطبيعة كمثل باخرة
تحتك بمرساها.

كانت الأشجار قد أدارت ظهرها إلى هذه الجهة.
وكثافة الثلج تقاس بالأعشاب الميتة.
وآثار الخطوات تشيخ على ركام الثلج،
واللغة تذبل تحت وقاء النباتات.

ذات يوم اقترب شيء من النافذة.
توقف العمل، رفعت نظري.
اشتعلت الألوان. وتلفت كل شيء.
قفزنا، أحدنا صوب الآخر، الأرض وأنا.

رنين

كانت السمنة تصفر أغنيتها على عظام الموتى.
كنا تحت شجرة نرى الزمن ينقضي.
كانت المقبرة وملعب المدرسة يتلاقيان ويتسعان
مثل تيارين في المحيط.

رنين أجراس الكنيسة يتبدد في الاتجاهات الأربعة، محمولاً على
ذراعين ناعمين لطائرة شراعية.
رنين ترك وراءه على الأرض صمتاً هائلاً
وخطوات شجرة، وديعة، خطوات وديعة.

عبر الضابة

هذا المكان المسمى بمستنقع يعقوب،
قبو نهار صيفي
حيث الضوء يختمر شراباً
بطعم الهرم والبؤس.

العمالقة الضعفاء متشابكون
بحيث لا يسقط منهم أي شيء.
البتولا المتصدعة تتعفن هناك
منتصبة كلاهوت صلب.

أنهض من عمق الغابة.
ينتشر النور بين الجذوع.
على سطوحي مطر.
وأنا مزراب للانطباعات.

الهواء دافىء على حدود الغابة ـ
صنوبرات ضخمة، مظلمة تلتفت إلى الوراء
وخطمها منغرس في دبال الأرض
تلعق ظل المطر.

نوفمبر بانعكاساته الفروية النبيلة

لأن لون السماء رمادي
أخذت الأرض تشع:
المروج باخضرارها الخجول،
التربة محروثة كعجينة سوداء.

هناك جدار هري، أحمر.
وحقول يغمرها الماء
كحقول أرز متلألئة في آسيا -
حيث تتوقف النوارس وتتذكر.

فراغات ضبابية في الغابة
تتلاطم بنعومة.
إلهام يعيش في خفاء
ويهرب في الغابة كهروب نيلس داكي (*)

(*) نيلس داكي: فلاح سويدي ثائر، قُتِلَ سنة ١٥٤٣

II

في محطة المترو.
تتزاحم الملصقات الإعلانية
في ضوء ميت بنظر شارد.

وصل القطار وحمل
الوجوه والحقائب.

المحطة التالية: العتمة. كنا جالسين
كتماثيل في العربات
التي كانت تنزلق في الكهوف.
إكراهات، أحلام، إكراهات.

كانت أخبار العتمة تُباع
في محطات تحت مستوى البحر.
كان الناس في حركة، حزن

وصمت تحت ساعات الجدران.

كان القطار ينقل
المعاطف والأرواح.

نظرات في جميع الاتجاهات
على امتداد الرحلة في الجبل.
ولا تغيير ينتظر.

لكنّ نَحْلَ الحريّة كان يطنّ
كلما اقتربنا من السطح الخارجي.
خرجنا من باطن الأرض.

مرة واحدة صفقت البلاد بجناحيها
قبل أن تتجمد عند أقدامنا،
فسيحة وخضراء.

كانت السنابل تتطاير
فوق أرصفة المحطة.

المحطة الأخيرة! تابعت سفري
إلى ما وراءها.

كم شخصاً بقي معنا؟ أربعة
خمسة، لا أكثر.

بيوت، دروب، غيوم،
خلجان زرقاء وجبال
فتحت شبابيكها.

C-dur

عندما وجد نفسه في الشارع بعد لقائه العاشق
بدأ الثلج يتراقص في الريح.
كان الشتاء قد حل فيما
كانا يمارسان الحب.
تلألأت الليلة بيضاء.
مشى مسرعاً من الفرح.
بدت المدينة كلها ماثلة.
ابتسامات متقاطعة.
كان كلّ يبتسم خلف ياقته المرفوعة.
كان ذلك مقبولاً!
وكانت كل نقاط الاستفهام تغني الحضور الإلهي.
هذا ما كان يظنه.

انفصلت الموسيقى
متقدمة بخطوات كبيرة
في الثلج العاصف.

كان كل شيء موجهاً نحو نغمة سي.

بوصلة مرتجة موجهة نحو سي.

مرت ساعة فوق حدود الآلام.

كان ذلك سهلاً!

وكلٌ كان يبتسم خلف ياقته المرفوعة.

ذوبان الثلج ظهراً

سَلَّمَتْ ريحُ الصبّاحِ رسائلها بطوابع
متوهّجة.
أضاء الثلج وخَفَّتْ الأعباءُ كلّها ـ لم يعد وزن الكيلو يتجاوز
٧٠٠ غراماً.

كانت الشمس عالية فوق الجليد تسبح في فضاء
بارد حار.
والريح تتقدم ببطء كأنها تدفع عربة طفل
أمامها.

خرجت العائلات، وشاهدت للمرة الأولى منذ زمن طويل
سماء صافية.
كنا في الفصل الأول من رواية خارقة.

كانت أشعة الشمس تعلق بقبعات الفرو كلها،

كغبار طلع على النحل،
وكانت أشعة الشمس تعلق على كلمة «شتاء» مقيمة فيها
حتى رحيل الشتاء.
وقفت متأملاً أمام لوحة لمشهد حطب على الثلج.
سألت:
«أتذهب معي إلى طفولتي؟» وأجاب «نعم».

غمغمة كلمات بلغة جديدة
تُسْمَع في الدغل:
كانت حروفها الصائتة لازورد السماء، وحروفها الساكنة أغصاناً
سود، لُفظَتْ بهدوء فوق الثلج.

لكن الطائرة النفاثة انحنت فوق تنانيرها الهادرة
وجعلت الصمتَ على الأرض يزدادْ عُمْقاً.

عندما شاهدنا الجزر مرة ثانية

بعيداً، عندما تقترب السفينة
يجيء مطرغزير يعميها.
قطرات الزئبق ترتعش فوق الماء.
والأزرق الرمادي يتمدد.

المحيط موجود أيضاً في أكواخ الشاطئ.
بصيص في عتمة البهو.
خطوات ثقيلة في الطابق العلوي
وصناديق ببسمات أعيد رسمها حديثاً.
أوركسترا هندية من آنية نحاسية.
وليدٌ لهُ عينا اللُّجّ.

(يتوقف المطر رويداً رويداً.
يخطو الدخان بضع خطوات في الهواء مترنحاً
فوق السطوح).

هنا أشياء كثيرة
أكبر مما هي في الأحلام.
للشاطئ أكواخ من خشب الدردار.
لافتة كُتبَ عليها «كبل».
يشعُ المَرج العتيق
لمن يأتي طائراً.

خلف الصخور حقول غنيّة
وفزّاعة الطير حارسنا الأمامي
الذي يُومئ للألوان.

دهشتي هائلة دائماً
عندما تمدُّ لي الجزيرة يدها
وتنتشلني من حزني.

من الجبل

أقف على الجبل وأتأمل الخليج.
المراكب ترتاح على سطح الصيف.
«نحن مسرنمون. أقمار هائمة».
هذا ما تقوله الأشرعة البيضاء.

«نتسلَّلُ إلى بيتٍ نائم.
ندفع أبوابه بهدوء.
ونتكئ على الحرية».
هذا ما تقوله الأشرعة البيضاء.

شاهدت يوماً إرادات العالم مبحرة.
كانت تتبع المجرى ذاته ـ أسطولاً واحداً.
«نحن الآن مشتّتون. لا رفقاء لنا».
هذا ما تقوله الأشرعة البيضاء.

III

اسبرسو

القهوة السوداء على الرصيف
بين كراس وطاولات مزوقة كالحشرات.

لهذه القطرات الثمينة الملتقطة
القدرة نفسها لنعم أو للا.

تُحْمَل من أعماق مقاه معتمة
وتحدق في الشمس دون أن يرف جفنها.

في ضوء النهار، نقطة سواد خيرة
تسيل سريعاً في صيف شاحب.

تشبه نقاطاً من استبصار أسود ،
تلتقطها الروح أحياناً،
فتمنحنا صدمة شافية: انطلق!
إيحاء يفتح العيون.

IV

القصر

دخلنا. قاعة واحدة ضخمة،
صامتة وخالية، وسطح الأرضية يبدو
كحلبة تزلج مهجورة.
الأبواب كلها مغلقة. والهواء رمادي.

لوحات على الجدران.
صور تتزاحم بلا حياة: دروع، كفتا ميزان،
أسماك، أشكال محاربين
في عالم أصم أبكم في الجهة الأخرى.

كانت منحوتة معروضة في الفراغ:
وحيداً في منتصف القاعة كان يقف حصان،
لم نلحظه في بداية الأمر
لأن الفراغ سيطر علينا.

أوهن من وشوشة في صدفة

كان يسمع صخب المدينة وأصواتها
تدور في الفضاء المهجور،
تدندن بحثاً عن سلطة.

شيء آخر أيضاً. شيء مظلم
نهض أمام عتبات حواسنا الخمس
دون أن يعبرها.
كان الرمل يسيل في جميع الأكواب الصامتة.

كان الوقت قد حان لنتحرك. اقتربنا
نحو الحصان. ضخم جداً، وأسود
كالحديد. لوحة عن السلطة
باقية بعد رحيل الأمراء.

تكلم الحصان: «أنا الأوحد.
طرحت الفراغ الذي كان يمتطيني.
ها هو إسطبلي. أنمو قليلاً قليلاً.
وآكل هنا صمت المكان».

سيروس

في ميناء سيروس كانت سفن تجارية منسية، تنتظر.

جؤجؤ يجاور آخر يجاور آخر. مربوطة منذ سنوات عديدة:

CAPE RION, MONROVIA.
KRITOS, ANDROS .
SCOTIA, PANAMA.

لوحات قاتمة على الماء، وضعت جانباً.

كمثل الألعاب في طفولتنا، تعملقت

والآن تتهمنا

بما لم نبلغه.

XELATROS, PIREUS.
CASSIOPJA, MONOROVIA.
فرغ البحر من قراءتها جميعاً.

لكن عندما وصلنا إلى سيروس للمرة الأولى، وكان الليل مخيّماً،

رأينا صدور هذه السفن واحداً إلى جانب الآخر تحت ضوء القمر، وقلنا آنذاك:

يا لهذا الأسطول الضخم، ويا لهذه الخطوط البحرية المنتظمة!

في دلتا النيل

بكت الزوجة الشابة مباشرة فوق طعامها
في الفندق بعد تمضية يوم في المدينة،
حيث رأت المرضى يزحفون ويسترخون
وأطفالاً سيموتون بؤساً.

صعدت وزوجها إلى الغرفة
التي رُشَّتْ بالماء لاعتقال الغبار.
نام كلٌ في سريره دون أن يقول شيئاً يُذْكَر.
غَرِقَتْ هي في نوم ثقيل. وبقي هو مستيقظاً.

خارجاً في العتمة ، علا إنذار هائل.
دمدمات، وقع خطوات، صيحات، عربات، أغنيات
كانت تجري في حالة استغاثة. لم يتوقف هذا كله.
ثم غرق في النوم متقوساً كمثل كلمة لا.

جاءه حلم: كان في رحلة بحرية.

تحرك الماء العكر وقال له

صوت:

« إنسانٌ طيب.

إنسانٌ يمكنه رؤية كل شيء دون كراهية».

V

طيف قاتم سابح

حول لوحة مما قبل التاريخ
لصخرة من الصحراء:
طيف قاتم سابح
في نهر هرم لا يزال شاباً.

دون أسلحة ودون خطط حربية،
ليس في راحة وغير مستعجل
لكنه منفصل عن ظله:
ينزلق في قاع التيار.

كان قد قاتل لكي ينفصل
عن صورة خضراء ناعسة،
أملاً في بلوغ الضفة أخيراً
والاتحاد بظله.

لامنتو

وضع قلمه جانباً.
يرتاح هادئاً على الطاولة.
يرتاح هادئاً في الفراغ.
وضع قلمه جانباً.

كثيرة هي الأشياء التي لا تُكْتَب ولا يُسكت عنها!
هوذا يشله شيء يحدث بعيداً
مع أن حقيبة السفر الرائعة تنبض كالقلب.

إنها أوائل الصيف في الخارج.
يتصاعد صفير من الخضرة ـ بشر أم طيور؟
وأشجار الكرز مزهرة تداعب الشاحنات العائدة إلى البيت.

تمر الأسابيع.
يخيم الليل رويداً رويداً.

يحط العث على النافذة:

برقيات مقتضبة شاحبة من العالم.

Allegro[*]

أعزف هايدن بعد يوم أسود
وأشعر بدفء خفيف في اليدين.

المفاتيح موافقة. مطارق ناعمة تنقر.
النغم أخضر، حيوي وهادئ.

يقول النغم: الحرية موجودة
وهناك من يرفض إعطاء ضريبة للقيصر.

أدخل يدي في جيوبي الهايدنية
وأقلد ذلك الذي ينظر إلى العالم بهدوء.

أرفع راية هايدن ـ معنى ذلك:
«لن نستسلم. لكننا نريد السلام».

(*) قطعة موسيقية سريعة العجلة.

الموسيقى بيت زجاجي على منحدر
تتطاير فيه الحجارة، تتدحرج فوقه الحجارة.
الحجارة تتدحرج عِبْرَ البيت كله
لكن زجاجه يَظَلُ كاملاً.

السماء نصف المكتملة

الإرهاق يوقف رحلته.
الكرب يوقف ركضه.
النسر يكف عن الهرب.

الضوء الجموح يتدفق،
الأشباح نفسها تأخذ جرعة منه.

و لوحاتنا تبرز في النهار،
حيوانات الزمن الجليدي الحمراء في مراسمنا.

كل شيء يتلفت حوله.
نمشي مئات تحت الشمس.

كل إنسان باب نصف مفتوح
يؤدي إلى غرفة للجميع.

أرض بلا نهاية تحتنا.

الماء يتلألأ بين الأشجار.

البحيرة نافذة مفتوحة على العالم.

موسيقى حالمة

أقود سيارتي عبر قرية في الليل. تظهر
البيوت تحت أضوائها ـ مستيقظة، وتريد أن تشرب.
بيوت، أهراء، لافتات، عربات لا قائد لها ـ إنها الآن
تلبس الحياة. ـ البشر ينامون:

بعضهم ينام بطمأنينة، بعضهم الآخر بتقاطيع متشنجة
كأنهم كانوا يمارسون تمارين قاسية مؤبدة.
لا يجرؤون على ترك أي شيء، مع أن نومهم ثقيل.
يرتاحون كمثل حواجز مغلقة في وجه اللغز.

بعد القرية، يمتد الطريق طويلاً بين أشجار الغابة.
والأشجار صامتة بتناغم فيما بينها.
لها لون مسرحي كاللون الذي نراه في النار.
ما أدق أوراقها! ترافقني حتى البيت.

ممدد وسوف أنام، أرى صوراً مجهولة

وإشارات تنخط من تلقائها خلف الجفون على جدار الليل.

في شق بين اليقظة والحلم

تحاول رسالة كبيرة أن تحشر نفسها دون جدوى.

ليلة شتوية

تضع العاصفة فمها على البيت
وتنفخ لكي تلد النغم.
أنام قلقاً، أتقلب، أقرأ
مغمض العينين، نص العاصفة.

لكن عيني الطفل واسعتان في العتمة
والعاصفة تهدر للطفل.
كل منهما يحب المصابيح المتأرجحة.
كل منهما في منتصف الطريق إلى اللغة.

للعاصفة يدان طفوليتان ولها أجنحة.
القافلة تندفع باتجاه الأرض اللابونية[*]
ويعرف البيت أية مجرة من المسامير
تمسك بجدرانه.

---

[*] منطقة جغرافية شمال السويد وفنلندا يطلق عليها اسم لا بلاند.

الليلة هادئة في منزلنا
(حيث الخطوط الممحوة

تهدأ كورق يسقط في السد)
ولكنها في الخارج وحشية!

فوق العالم تهدر عاصفة أكثر خطورة.
تضع فمها على روحنا
وتنفخ لكي تلد النغم. نخاف
أن تفرغنا العاصفة فيما تنفخ.

تناغمات وآثار

١٩٦٦

بورتريه مع تعقيب

هذا وصف لرجل عرفته.
جالساً إلى الطاولة فاتحاً جريدة.
عيناه تقبعان وراء نظارته.
بزّته مغسولة بضياء غابة الصنوبر.

إنه وجه شاحب نصف مكتمل. ـ
ولكنه كان دائماً يوحي بالثقة. لذا
كان يحترس من الاقتراب إليه
خوفاً من الوقوع في مأساة.

كان والده واسع الثراء.
ولكن على الرغم من ذلك لم يكن أحد في بيته مطمئناً ـ
كان ثمة شعور أن أفكاراً غريبة
تقتحم الفيلا في الليل.

الجريدة، تلك الفراشة الكبيرة القذرة،
الكرسي والطاولة والوجه في استراحة.
توقفت الحياة في بلورات ضخمة.
دعها إذاً تنتظر إلى حين!

❖

الآن يرتاح فيه ما هو أنا.
موجود. لا يتحقق،
لذا ما هو أنا يعيش ويدوم.

ماذا أنا؟ منذ وقت طويل كنت أحياناً
أقترب لحظات
من ماذا أنا ، من ماذا أنا، من ماذا أنا.

ولكن لحظة رؤية أنا ،
اختفى أنا، وانحفرَ ثُقْبٌ
هويتُ في داخله كمثلِ
أليس.

لشبونة

كانت عربات الترام الصفراء تُغَنّي في
مرتفعات حي الفاما.
كان هناك سجنان. واحد للصوص.
كانوا يلوحون من خلف القضبان،
ويصرخون لالتقاط صورٍ لهم.

«لكن هنا»، قال قاطع التذاكر وَضَحِكَ متردداً،
«هنا يُسْجَن السياسيون». نظرتُ إلى الواجهة، الواجهة، الواجهة
وفي الأعلى، في نافذة
وقف رجل على عينيه منظار يتأمل البحر.

كان الغسيل معلقاً في الهواء الطلق. كانت الأسوار ملتهبة.
والذباب يقرأ رسائل مجهرية.
بعد ست سنوات، سألت سيدة من لشبونة:
«هل هذا واقعي، أم أنني كنت أحلم؟»

من دفتر يوميات أفريقية

(١٩٦٣)

في لوحات الرسام الكونغولي الشعبي

كانت الأطياف الناعمة كالحشرات، تتحرك مُعرّاةً من

قدرتها البشرية.

إنه الممر الصعب بين أسلوبين في العيش.

لا تزال الطريق طويلة أمام من وصل.

اكتشف شاب، الغريب الذي تاه بين الأكواخ.

لم يعرف ما إذا كان سيجعل منه صديقاً أو

شيئاً للابتزاز.

أغضبه التردد. افترقا

حائرين.

أما الأوروبيون فيتحلقون حول السيارة

كما لو أنها أمهم.

الزيزان حادة كمثل شفرات الحلاقة. تمضي السيارة إلى البيت.

قريباً يجيءُ الليل الجميل، ويهتم بالغسيل القذر.

نم.

لا تزال الطريق طويلة أمام من وصل.

قد يخدمنا سرب طيور مهاجرة في شكل مصافحات.

قد يخدمنا لإطلاق الحقيقة من الكتب.

من الضروري أن نمضي قدماً.

يدرس الطالب ليلاً، يدرس ويتابع الدرس ليتحرر

وبعد نيله الشهادة يتحول إلى درجة سُلّميّة لمن يأتي بعده.

ممر صعب.

لا تزال الطريق طويلة أمام من وصل.

قمة

متنهدة تبدأ المصاعد بالصعود
في ناطحات سحاب رقيقة كالخزف.
سيكون النهار في الخارج على الإسفلت حاراً.
كانت إشارات المرور مغلقة الجفون.

البلاد مرتفعة باتجاه السماء.
قمة تلو قمة، وليس هناك ظل حقيقي.
نطير باحثين عنك
في هذا الصيف السينماسكوبي.
وفي المساء أتمدد كمثل مركب
مطفأ الأضواء، مبتعداً على نحو
معقولٍ عن الواقع، بينما الطاقم
يزدحم هنالك في الحدائق على اليابسة.

احتفاءات

مشى محاذياً للجدار غير الشعري.
داي ماور(*)، لا يراقب.
يريد إحاطة حياتنا الراشدة
في رتابة المدينة، ورتابة الريف.

ضغط إيلوار(**) على أحد الأزرار
وانفتح الجدار
وبانت الحديقة.

ماضياً كنت أعبر الغابة حاملاً سطل حليب.
جذوع بنفسجية في جميع الجهات.
كانت دعامة قديمة تتدلى في الداخل
جميلة كمثل قربان.

(*) Die Mauer
(**) Eluard

كان الصيف يقرأ مغامرات السيد بيكويك.
الحياة الجميلة، عربة هادئة
مليئة بأشخاص غاضبين.

أغمض عينيك، بدل الأحصنة.

في المحنة تجيئنا الأفكار الأكثر طفولية.
جلسنا على طرف سرير المريض، وصلينا
من أجل لحظة استراحة في الرعب، ثغرة
تمكن
آل بيكويك
من التدخل.
أغمض العينين، بدل الأحصنة.

سهل أن نحب الأجزاء
التي طال سفرها.
منقوشات على أجراس الكنائس
المأثورات تدور حول القديسين
وهذه البذور الضاربة في القدم.

أرخيلوشوس(*)!ـ لا جواب.

داعبت الطيور فرو البحر.
سجنا أنفسنا مع سايمونون
وشممنا رائحة الوجود البشري
حيث تنبع المسلسلات.

تنشق رائحة الحقيقة.

هنا توقفت النافذة المفتوحة
قبالة أعالي الشجر،
وفي رسائل الوداع لسماء غسقية.

شيكي، بيورلينغ وأونغاريتي(*)،
بطباشير الحياة على لوح الموت.
هذه القصيدة ممكنة تماماً.

نظرت إلى أعلى عندما اهتزت الأغصان.

(*) Archilochos
(*) Shiki, Björling, Ungaretti.

كانت نوارس بيضاء تأكل كرزاً أسود.

صيغ الشتاء

I

غفوت في سريري
واستيقظت تحت الغاطس.

في الرابعة صباحاً
عندما تتعاشر عظام الوجود المجلوة
بلا تأثر.

غفوت بين السنونوات
واستيقظت بين النسور.

II

يتلألأ في ضوء المنارة كالشحم،
جليد الطريق.
هذه ليست أفريقيا.
هذه ليست أوروبا.
هذا لا مكان آخر سوى «هنا».

وهذا الذي كان «أنا»
لم يعد إلا كلمة
بين شفتي ليل ديسمبر.

III

أجنحة سجن الأحداث
معروضة في العتمة
تشع كشاشات التلفزة.

شوكة رنانة مخبأة
ترسل نغماتها
في هذا البرد الكبير.

أقف تحت النجوم
وأشعر بالعالم يزحف
داخلاً خارجاً، كمثل منملة
في معطفي.

IV

ثلاث سنديانات سوداء تحت الثلج.

ضخمة جداً ولكنها رشيقة.

ستزيد خضرة الربيع

في قواريرها الكبيرة.

V

يزحف الباص عبر ليلة الشتاء.

يشع كسفينة في غابة الصنوبر

حيث الطريق قناة ميتة عميقة وضيقة.

ركاب قليلون: بعضهم كبار في السن وبعضهم الآخر فتيان جداً.

لو كان توقف وأطفأ مصابيحه

لانقرض العالم.

طيور الصباح

أوقظ السيارة
التي طليت واجهتها بغبار الطلع.
أضع نظاراتي الشمسية.
يسود نشيد الطير.

بينما يشتري شخص آخر جريدة
في محطة القطارات
بالقرب من عربة نقل كبيرة
شديدة الاحمرار بسبب الصدأ،
وامضة في الشمس.

لا فراغ هنا في أي مكان.

ممر بارد عبر الدفء الربيعي
يقبل منه شخص على عجلة

ويروي أن سمعته شُوِّهَتْ
حتى في أعلى مكان.

من باب خلفي في الريف
يأتي العقعق
أسود وأبيض. عصفور مملكة الموت
والشحرور الذي يتحرك في جميع الاتجاهات
حتى يصبح كل شيء لوحة فحمية،
باستثناء تلك الملابس البيضاء على حبل الغسيل:
جوقة بالسترينا.

لا فراغ في أي مكان هنا.

مذهل الشعور كيف تكبر قصيدتي
فيما أتقلص.
إنها تكبر وتأخذ مكاني.
تنقلب علي.
تطردني خارج العش.
انتهت القصيدة.

حول التاريخ

I

في يوم من آذار أنزل إلى البحيرة وأصغي.
الجليد أزرق كالسماء. يتشقق تحت الشمس.
الشمس التي تهمس كذلك في مذياع تحت طبقة الجليد.
يختمر ويبقبق. وهناك في البعيد من يبدو ملوحاً بغطاء.
كل شيء يذكر بالتاريخ: راهننا. غارقين،
نصغي.

II

مؤتمرات تشبه جزراً طائرة على وشك أن تهوي. . .
ثم: جسر تسويات طويل مترجرج.
هناك ستعبر المركبات كلها، تحت النجوم
تحت الوجوه الشاحبة لأولئك الذين لم يولدوا بعد،
مرمية في الفراغ، لا أسماء لها كحبوب الأرز.

III

تجوّل غوته في أفريقيا سنة ١٩٢٦ متنكراً بزيّ جيد[*] وشاهد كل
شيء هناك.
بعض الوجوه تصبح أكثر وضوحاً لما تشاهده بعد الموت.
عندما أذيعت أخبار اليوم من الجزائر،
انبعث بيت كبير بنوافذ مظلمة،
إلا واحدة. وشوهد هناك وجه درايفوس.

IV

راديكالي ورجعي يتعايشان كثنائي بائس،
أحدهما مكون بالآخر، وكلاهما يتبع الآخر
لكن نحن أبناءهم يجب أن ننفصل عنهم.
كل مشكلة تفصح بلغتها الخاصة.
امش على آثار الحقيقة كمثل كلب يتعقب الأثر!

V

خارجاً في الحقل البور، ليس بعيداً عن العمارات،
ثمة صحيفة منسية منذ أشهر، محشوة

[*] اندره جيد. (١٨٦٩ـ١٩٥١): أديب فرنسي من أشهر كتاب القصة ومن أنصار التحرر الفكري والأخلاقي. مُنح جائزة نوبل سنة ١٩٤٧.

بالأحداث.

تشيخ عبر الليالي والأيام تحت المطر والشمس،

في طريقها لتصبح غرسة، رأس ملفوفة، في طريقها للاتحاد مع الأرض.

مثل ذكرى تصبح شخصك أنت رويداً رويداً.

عزلة

I

هنا كنت على وشك أن أموت ذات مساء في شباط.
انزلقت السيارة جانبياً على الجليد، إلى
الجهة الخاطئة من الشارع. السيارات الآتية ـ كانت مصابيحها
ـ تقترب.

اسمي، بناتي، عملي
انفصلت واستقرت في الخلف صامتة
أكثر بعداً. كنت مجهولاً
كمثل ولد يحدق به الأعداء في ساحة المدرسة.

كان للسيارات في الجهة المقابلة مصابيح قوية.
كانت تضيئني فيما كنت أدور وأنعطف
في شفافية رعب يرشح كمثل زلال البيض.
تطاولت الثواني ـ واتخذت فيها مكاناً ـ
وكبرت كمثل أبنية مستشفى.

كان من الممكن تقريباً التوقف
والتنفس لحظة
قبيل أن أتحطم.
لكن آنذاك وجدت ممسكاً: ذرة رمل مخلصة
أو هبة ريح بفعل معجزة. انطلقت السيارة من جديد
وزحفت قاطعة الطريق بسرعة.
عمود اقتلع بقوة وتكسر ـ بضجة حادة ـ
وتطاير بعيداً في العتمة.

ثم هيمن السكون. بقيت جالساً في مقعدي
ورأيت كيف يقبل شخص من دوامة الثلج
ليرى ما تبقى مني.

II

طفتُ طويلاً
في حقول أوستجوتسكا[*] المتجمدة.
لم ألتق هناك بأي إنسان.

---

[*] أوستجوتسكا: مقاطعة سويدية.

في أجزاء أخرى من العالم
من يولدون، يعيشون، يموتون
في ازدحام متواصل.

أن تكون دائماً مرئياً ـ تعيش
في حشد من العيون ـ
أمر ينبغي أن يكون له تعبير خاص.
الوجه مغطى بالوحل.

الوشوشات تصعد و تهبط
بينما يتم تقاسم
السماء، والظلال، وذرات الرمل.
يجب أن أكون وحيداً
عشر دقائق صباحاً
وعشر دقائق مساءاً.
ـ دون أي برنامج.

الجميع يصطف عند الجميع.

كثيرون.

واحد.

على تخوم العمل

في منتصف العمل
نتشوق بقوة للخضرة الوحشية،
للقفر ذاته الذي لا تخرقه من الحضارة إلا
خيوط الهاتف.

❖

يدور قمر وقت الفراغ حول كوكب العمل
بحجمه وثقله ـ هذا ما يريدونه.
عندما نكون في طريقنا إلى البيت تستنفر الأرض أذنيها.
ما تحت الأرض يسمعنا عبر خيوط العشب.

❖

يهيمن كذلك على يوم عملنا هذا صمت خاص.
كما هي الحال في داخل بلاد مدخنة، تمر فيها قناة:
يظهر المركب دون سابق إنذار في منتصف السير،
أو ينزلق وراء المصنع، كمثل متشرد أبيض.

❖

في نهار أحد أمر محاذياً عمارة جديدة لم تُدْهَن بعد
تنتصب قبالة مياه قاتمة.
نصف مكتملة. للخشب اللون الفاتح نفسه
للون البشرة التي تستحم.

❖

ليل أيلول أسود تماماً فيما وراء المصابيح.
عندما تألف العيون يسقط ضوء قليل
على الحقول التي تنزلق فيها بزاقات ضخمة
وحيث الفطر كثير كمثل النجوم.

بعد موت شخص[*]

كان ذلك صدمة
تلاها مُذَنَّبٌ هائلٌ شاحبٌ وبراق.
يستضيفنا. يشوش الصور المتلفزة.
يستقر كمثل قطرات باردة في الأقنية الهوائية.

لا يزال التزلج ممكناً تحت شمس الشتاء،
بين باقات الشجر بأوراق العام الماضي التي لم تسقط بعد.
والتي تذكر بأوراق مُزِّقَتْ من دليل قديم للهاتف ـ
وقد افترس البرد أسماء المشتركين.

لا يزال ساراً الشعور بأن القلب ينبض.
ولكن الظل يبدو غالباً أكثر واقعية من الجسم.
يبدو الساموراي بلا معنى،
إلى جانب لأمته المصنوعة من حراشف التنين السوداء.

---

[*] جون إف كنيدي

أوكلاهوما

I

توقف القطار بعيداً في الجنوب. كان ثلج في نيويورك.
هنا كان يمكن التجول طول الليل بقمصان مرفوعة الأكمام.
ولكن لم يكن أحد خارجاً. وحدها السيارات
كانت تطير في ضوء مصابيحها، كمثل صحون طائرة.

II

«نحن ساحات القتال التي تفخر
بأمواتها الكثيرين. . . » قال صوت فيما كنت أستيقظ.

رجل خلف مكتبه قال:
«لا أحاول بيعها،
لا أحاول بيعها،
أريد أن تشاهدوها لا غير»
وأبرز لنا فؤوس الهنود.

قال الولد:

«أعرف أن لدي حكماً مسبقاً،

أريد التخلص منه يا سيدي.

ما رأيكم فينا؟»

III

هذا النزل قشرة غريبة. في سيارة مستأجرة

(خادم كبير أبيض يقف وراء الباب)

تقريباً دون ذاكرة ولا مهنة،

يمكنني أخيراً أن أغوص في مركزي.

سهل الصيف

شاهدنا الكثير.
الواقع طالما استنفذنا،
ولكن ها هو الصيف قد
حلَّ أخيراً:

مطار كبير. موجه الطائرات ينزل من الفضاء
شحنات الواحدة تلو الأخرى من بشر متجمدين.

عشب وورد - هنا نهبط.
للعشب رئيس أخضر.
أسجِّل نفسي.

طوفان على الأرض الداخلية

المطر يطرق سطوح السيارات.
الرعد يدوي. السير بطيء.
تُضاء المصابيح في منتصف نهار صيفي.

ينحبس الدخان في المداخن.
كل ما يحيا يلبد، ويطبق الجفون.
حركة في الداخل، أشعر عن كثب بالحياة.

السيارة عمياء تقريباً. يتوقف
يشعل ناراً خاصة ويدخن
بينما يسيل الماء فوق زجاج النوافذ.

الطريق غابة تتلوى على حدة
قرب بحيرة نيلوفر
وجبل طويل يختفي في المطر.

في الأعلى تنهض محارق
الزمن الحديدي، كان ذلك مكاناً
لحروب القبائل، كونغو أكثر برودة

وكان الخطر يسوق البشر والقطعان
إلى مركز جلبة خلف الجدران،
خلف الأشواك والصخور على قمة الجبل.

منحدر قاتم، شخص يتقدم، يتسلق
مرتبكاً وعلى ظهره درع -
هذا ما يفكر به في أثناء توقف سيارته.

عاد الضوء، ينزل زجاج النافذة.
طائر يتكلم وحيداً كمثل مزمار
في مطر صامت يخف شيئاً فشيئاً.

سطح البحيرة يتمطّى. رعد السماء
يوشوش الطين عبر النيلوفر.

ببطءٍ تفتحت نوافذ الغابة.

لكن الرعد يضرب مباشرة من قلب الصمت!
قصف يصم. بعد ذلك فراغ
تسقط فيه بهدوء قطرات المطر الأخيرة.

في الصمت يسمع جواباً آتياً
من بعيد كصوت طفل خشن.
يعلو خوار من الجبل.

جلبة أنغام متمازجة.
بوق طويل أبح، من العصر الحديدي.
وربما من عمق أعماقه.

تحت الضغط

ضوضاء كثيفة لمحرك السماء الزرقاء.
نبقى في مكان العمل المرتج،
حيث يمكن قعر البحر أن يظهر فجأة -
محارات وهواتف تهسهس.

لا نستشفُ الجمال إلا بسرعة وجانبياً.
القمح المكتظ في الحقل، ألوان متعدّدة في تيّارٍ أصفر.
حيث تصبُ الظلال المضطربة في رأسي.
تريد أن تخترق القمحَ وتتحولَ إلى ذهب.

تهبط العتمة. أمضي في منتصف الليل إلى الفراش.
مركب صغير يُقْذَف من سفينة كبيرة.
وحدنا على الماء.
دائما إلى أبعد يُبْحِرُ صَدْرُ السفينة الأسود.

رجل يتلمَّسُ العالم عِبْرَ قفاز مهنته.
يرتاحُ قليلاً في وسط النهار واضعاً
قفّازه على الرف.
فجأة يكبر، ينتشر
ويعتم داخل البيت كله.

تحدق بالبيت المعتم رياح الربيع.
«عفواً» يقول همس في العشب: «عفواً».
ولد يركض ومعه حبل لا مرئي يرتفع مباشرة
إلى السماء
حيث تحوم أحلامه المستقبلية الأكثر جنوناً كطائرة ورقية
أكبر من ضاحية المدينة.

بعيداً في الجهة الشمالية، يشاهد من على تلة سجادة
غابة الصنوبر بزرقتها التي لا نهاية لها.

هناك ظل الغيوم
واقف لا حراك له.
لا، إنها تطير نحونا.

فنان في الشمال

أنا إدوارد غريغ تنقلت بين الناس
إنساناً حراً.
مازحتهم باستمرار، قرأت الصحف، سافرت وابتعدت.
قدت الأوركسترا.
اهتزت قاعة الحفلات بمصابيحها منتشية بالنجاح كالسفينة
المعدية عندما ترسو.

جئت إلى هنا لأتلاحم مع الصمت.
كوخ عملي صغير.
البيانو محصور فيه، كمثل سنونوة
تحت قرميد السقف.

المنحدرات الجميلة المائلة، صامتة معظم الوقت.
لا يوجد أي ممر
ولكن هناك فرجة تنفتح أحياناً

وضوء غريب يسيل مباشرة من الجبار الخرافي.

بسط!

وضربات المطارق في الجبل. ادخلي

ادخلي

ادخلي

ادخلي يا ليلة الربيع إلى غرفتنا

متخفية في زي دقات القلب.

قبل عام من موتي سأرسل أربع تراتيل

بحثاً عن الله.

لكن هذا يبدأ هنا.

نشيد عن القريب إلينا.

عن القريب إلينا.

ساحة معركة في داخلنا

حيث نحن عظام الموتى

نصارع لكي نصبح أحياء.

في الهواء الطلق

I

متاه خريف متأخر.

على مدخل الغابة، قارورة فارغة مرمية.

أدخل. الغابة مكاتب صامتة مهملة في هذا الوقت من السنة.

بضعة أصوات لا غير: كما لو أن أحداً ينقل حذراً أغصاناً بالملقط،

أو كمثل مفصلة تصر خافتة داخل جذع ضخم.

نفخ الصقيع على الفطر فتجعد.

شبيهاً بأشياء المفقودين وملابسهم التي يعثر عليها

ها هو الشفق يأتي. يجب الإسراع إلى الخارج

وإلقاء نظرة جديدة على نقاط الاستدلال: الأداة الصدئة في الحقل

والبيت على الضفة الأخرى من البحيرة، هذا المربع الخمري اللون المركز

كقرص الحساء.

II

رسالة من أمريكا حركتني، دفعتني خارجاً
في ليلة منيرة من حزيران إلى الشوارع الفارغة في الضاحية
بين أحياء حديثة الولادة دون ذاكرة، باردة كالخرائط.
الرسالة في الجيب. نزهة ملعونة وعنيفة،
كالمرافعة.
للخير والشر عندكم وجوه.
ما بيننا هو عادة صراع بين الجذور، الأرقام،
الضوء.

الذين يعملون لصالح الموت لا يخافون ضوء النهار.
يحكمون من طوابق زجاجية. يزدحمون في وهج الشمس.
ينحنون فوق طاولاتهم ويديرون رؤوسهم.

بعيداً جداً صادف أن تَوَقَّفْتُ أمام إحدى الواجهات الجديدة.
نوافذ كثيرة تذوب في نافذة واحدة.
يأسر الليل فيها أضواء السماء، وهجرة تيجان الشجر.
إنها بحيرة لامعة دون أمواج، تنهض في ليل الصيف.

يبدو العنف لوهلة قصيرة
كأنه غير واقعي.

III

الشمس حارقة. تتقدم الطائرة على علو منخفض
وتلقي ظلاً في شكل صليب كبير يجري
على الأرض.
شخص يجلس في الحقل وينبش.
يقبل الظل.
بجزء من الثانية يصبح في منتصف الصليب.
رأيت الصليب المعلق بقنطرة الكنيسة الرطبة.
يذكِّر أحياناً بالصورة الفورية
لشيء يتحرك بغتة.

موسيقى بطيئة

المبنى مقفل. تخرق خيوط الشمس النوافذ
وتدفئ أعالي المكاتب
القوية بحيث تتحمل ثقل القدر.

اليوم نخرج إلى المنحدر الطويل.
يرتدي الكثيرون ملابس قاتمة. يمكن البقاء في أشعة الشمس
وإطباق العينين
والشعور بالريح التي تحملنا ببطء.

نادراً ما أجيء إلى الماء. ولكن ها أنا الآن هنا،
بين صخور كبيرة لها ظهور ناعمة.
صخور خرجت ببطءٍ من الموج.

رؤى ليلية

١٩٧٠

الاسم

أنعس في أثناء رحلتي فأوقف سيارتي تحت شجرة على
جانب الطريق. أتكوَّر في المقعد الخلفي وأنام. كم ساعة؟
ساعات.
كان لليل متسع للهبوط.

فجأة أستيقظ، لا أعرف من أنا. يقظان، ولكن
دون جدوى. أين أنا؟ من أنا؟ أنا هذا الشيء الذي يستيقظ في
مقعد خلفي، يتخبط مرعوباً كهر في كيس. من؟

أخيراً تعود حياتي. كملاك يهبط اسمي. وراء الجدران ينفخ في
البوق(كما ينفخ في افتتاحية إليونورا) وتأتي الخطوات المنقذة
مسرعة مسرعة نزولاً على الدرج الطويل جداً. هذا أنا! هذا أنا!

لكن يستحيل أن أنسى صراع الخمس عشرة ثانية
في جحيم النسيان، على بعد بضعة أمتارٍ من الشارع الرئيسي
حيث ينزلق السير
بأضوائه المشعة.

بضع دقائق

الصنوبرة المنخفضة في المستنقع، ترفع تاجها إلى الأعلى: خرقة
سوداء.
لكن ما يشاهد لا شيء مقارنة بالجذور، بمنظومة الجذور المفككة
الزاحفة بخفاء، الأبدية أو نصف الأبدية.

أنا أنت هي هو تتشعب أيضاً.
خارج حدود ما يراد.
فيما وراء المتروبوليس.

من سماء بيضاء كالحليب ينزل المطر.
كأن حواسي الخمس كانت موصولة
بكائن آخر
يتنقل بإصرار، كإصرار
أولئك العدائين، الصفر الملابس في ملعب
تتدفق فيه العتمة.

مهلة في تموز

ذلك المستلقي على ظهره تحت الشجر العالي
هو كذلك في الأعلى. ينتشر في آلاف الأغصان،
ويتأرجح إلى الأمام والوراء،
جالساً على كرسي قاذف ينطلق على مهل.

ذلك الواقف قرب الجسور العائمة ترف عيناه عندما ينظر في اتجاه المياه.
تشيخ الجسور العائمة أسرع من البشر.
أخشابها فضية قاتمة وفي بطنها حجارة.
الضوء المبهر يخترقها حتى الأعماق.

ذلك المسافر طول النهار في سفينة مفتوحة
فوق الخلجان المتلألئة
سيغفو في النهاية داخل مصباح أزرق
فيما تزحف الجزر فوق الزجاج، كفراشات ليل كبيرة.

مع النهر

في حديث مع معاصرين، شاهدت وراء
وجوههم وسمعت
التيار الذي كان يتدفق جارفاً معه راغبين وغير راغبين.
الكائن ذو العينين المصمغتين
الذي يريد السير في منتصف الشلال مع التيار
يرمي بنفسه إلى الأمام دون أن يرتعش،
في جوع صاخب بحثاً عن البساطة.

تسيل المياه بصخب أكبر

كمثلما يضيق النهر هناك وينقلب
إلى فيض - في المكان حيث أقف بعد
رحلة في غابات يابسة

ذات مساء من حزيران: المذياع يبث الأنباء الأخيرة
عن الاجتماع الاستثنائي: كوسيجين، ابان.

أفكار نادرة تثقب رأسي يائسة.
أشخاص نادرون هناك في القرية.
وتحت الجسر المعلق تسقط كتل الماء قريبة إلي.
ها هي تقبل جذوع الأشجار.
جذوع تسير مستقيمة كالطوربيدات. وأخرى
تتقلب في مكانها، تدور بكسل وتمضي بائسة

جذوع أخرى تشمشم على ضفاف النهر،
تتغلغل بين الحجارة والنفايات، تتسمر
وتتكدس كمثل أيد مضمومة

جامدة في الصخب.

على الجسر المعلق
في غيمة من البعوض،
شاهدت وسمعت مع بعض الأولاد. دراجاتهم الهوائية
مدفونة في الخضرة - قرونها وحدها كانت
ظاهرة.

منطقة حدودية

رجال بسراويل عمل لها لون التراب، يصعدون
من الحفرة.
إنها منطقة عبور، نقطة ميتة، لا هي مدينة ولا هي قرية.
رافعات الأبنية في الأفق تريد أن تثب الوثبة الكبيرة لكن
الساعات ترفض ذلك.
أنابيب الإسمنت المنتشرة تلعق الضوء بألسنة جافة.
مصانع لصفائح سيارات مخزنة في أمكنة كانت حظائر.
تلقي الحجارة بظلها الحاد كأنها آلات على سطح القمر.
ولا تكف تلك الأماكن عن الاتساع.
كمثل ما تم شراؤه بأموال يوضاس: « حقل الفخار
مقبرة للغرباء».

سـير

تزحف الشاحنات في الضباب
كظل يرقة اليعسوب الكبير
الذي يتحرك في الماء العكر في قعر البحيرة.

تتلاقى المصابيح غابة تمطر ندى.
لا تمكن رؤية وجه الآخر.
يهوي نهر من الضوء عبر إبر الصنوبر.

نأتي في الغسق من جميع الجهات ظلال، مركبات
نسير بعضنا وراء بعض
إلى جانب بعض، ننزلق إلى الأمام في
نذير خافت

خارجاً في السهل حيث تربض المصانع
وتغرق المباني مليمترين

في السنة ـ يبتلعها التراب ببطء.

براثن مجهولة تترك آثارها
على المنتجات البراقة المصنوعة في الحلم.
تحاول البذور أن تعيش في الإسفلت.

لكن أولاً، شجر الكستناء، كئيب كأنه
يتهيأ لإثمار قفازات حديدية
بدلاً من العناقيد البيضاء، وخلفها

مكاتب الإدارة ـ حيث يومض يومض مصباح ضعيف.
هنا باب سري. افتح!
وانظر في المنفاق المقلوب

إلى الأسفل، باتجاه الفتحات، والقساطل العميقة
حيث تنبت الطحالب كمثل لحى الموتى،
ويسير الكناس بملابس لزجة

واهن الخطوات يكاد أن يختنق.

لا أحد يدري كيف ستكون النهاية، إلا
أن ينكسر القيد ثم يلتحم مجدداً باستمرار.

خدمة ليلية

I

نزلت هذه الليلة لأرى الصابورة.
أنا واحد من الأثقال الصامتة
التي تمنع الباخرة من الانقلاب!
أوجه في الظلام مبهمة كالحجارة.
لا تعرف إلا الصفير: «لا تلمسوني».

II

تتزاحم أصوات أخرى، والمستمع
ينزلق كظل ضيق فوق شريط الراديو
المضاء بالمحطات.
تمشي اللغة على إيقاع خطوات الجلادين.
لذا ينبغي أن نبحث عن لغة جديدة.

III

الذئب هنا، صديق الساعات كلها،

يتحسس النوافذ بلسانه.

الوادي مليء بمقابض فؤوس زاحفة.

ضجيج طائر الليل يسيل على السماء

كئيباً، كأنه على كرسي للمعوقين بعجلات حديدية.

IV

ينبشون المدينة. لكن الآن يخيم الصمت.

تحت دردار المقبرة:

آلة حفر فارغة. الرفش فوق التراب ـ

حركة رجل نائم فوق الطاولة

وقبضته أمامه. ـ جرس يرن.

النافذة المفتوحة

ذات صباح كنت أحلق ذقني
أمام النافذة المفتوحة
في الدور الأول.
أدرت آلة الحلاقة.
بدأت تدندن.
وتئز أقوى وأقوى.
وصار ذلك ضجيجاً.
كمثل طائرة مروحية
وصوت - صوت قائدها - خرق
الضجيج وصرخ:
«أبق عينيك مفتوحتين!
تشاهد ذلك للمرة الأخيرة».
وارتفعنا.
حلقنا بانخفاض فوق الصيف.
كثيراً أحببت ذلك، ألهذا وزن؟

عشرات اللهجات الخضراء.
وبخاصة اللون الأحمر لجدران المنزل الخشبي.
كانت الخنافس تلمع في الروث تحت أشعة الشمس.
أقبية انتشلت مع جذورها،
جاءت عبر الريح.
نشاط.
آلات الطباعة تدب.
في الوقت الراهن،
البشر وحدهم لا حراك لهم.
وقفوا دقيقة صمت.
كان الموتى في مقبرة القرية خصوصاً
جامدين
كمثل الوقوف أمام آلة التصوير في بداياتها لأخذ صورة.
حلق منخفضاً!
لم أعرف إلى أي جهة
أدرت رأسي -
رؤية الأفق مشطورة
كمثل رؤية الحصان.

مقدمات موسيقية

I

أجفل من شيء آت، يَتَشَحَّط جانبياً تحت الثلج الذائب.
أجزاء مما سيأتي.
جدار مخلوع. شيء بلا عينين. قاس.
وجه من أسنان!
جدار وحيد. أم هناك البيت لكنني
لا أراه ؟
المستقبل: جيش من البيوت الفارغة
تبحث عن طريقها في الثلج الذائب.

II

حقيقتان تقترب إحداهما من الأخرى. واحدة تأتي من الداخل
وأخرى من الخارج
وفي مكان التقائهما احتمال لمشاهدة الذات.

الذي يلاحظ ما سيحدث يصرخ

يأساً: «توقّفا!

أياً كان الأمر، المهم أن أتجنب التعرف على نفسي».

وهناك سفينة تريد أن ترسو ـ تحاول الآن هنا ـ

إنها ستحاول آلاف المرات.

من قلب عتمات الغابة، يطل خطّاف باخرة طويل، يقذف

من قلب النافذة المفتوحة،

بين ضيوف الحفلة الذين أدفأهم الرقص.

III

ستفرغ الشقة التي سكنتها أطول مدة في حياتي. إنها الآن

خالية من كل شيء. رفعت المرساة ـ ورغم أن الحزن

لا يزال مخيماً، فهذه الشقة هي الأخف في المدينة كلها.

لا تحتاج الحقيقة إلى أثاث. درت مرة حول الحياة دورة كاملة

وعدت إلى نقطة

الانطلاق: غرفة خالية. عشت في هذا المكان أحداثاً تظهر

على الجدران كرسوم مصرية، ومشاهد داخلية

في حجرة القبر. ولكنها تمحي مع الوقت. لأن الضوء فيها قوي

جداً.

كبرت النوافذ. الشقة الخالية منظار كبير

مُوَجَّهٌ نحو السماء. صمتٌ يشبه صلوات الكويكرز(*). ما نسمعه هو هديل لحمام الحدائق الخلفية.

(*) الكويكرز: طائفة مسيحية يطلق عليها اسم جماعة الأصحاب.

قامة شامخة

في لحظة تركيز نجحت في اعتقال الدجاجة، ووقفت
ممسكاً بها بين يدي. غريب، لم تبد لي أنها حية بالفعل:
جامدة، ناشفة، قبعة سيدة، قديمة بيضاء مزركشة بالريش تصرخ
بحقائق
١٩١٢. الرعد في الهواء. من ألواح الخشب فاحت رائحة
تشبه تلك التي تخرج عندما يُفْتَحُ ألبوم صورعتيقة لم يعد من
الممكن
التعرف عليها.

حملت الدجاجة إلى الحظيرة وأطلقتها. فجأة
دبَّتْ فيها الحياة بقوة، وجدتْ طريقها وركضتْ وفقاً للقواعد.
المدجنة
مليئة بالمحرمات. لكن الحقل من حولها مليء بالحب.
الوفاء. جدار حجري منخفض يملؤه العشب حتى منتصفه.
عندما

يحل الغسق، تُضَاءُ الحجارة بحرارة مئة عام من الأيدي التي بنتها.

كان الشتاء صعباً، لكن ها هو الصيف قد حل، والأرض تطلبُ منا أن نسير بقامات شامخة.

أحرار لكن متيقظون، كما لو أننا في مركب ضيق.

تخطر لي ذكرى من أفريقيا: مراكب كثيرة على شاطئ «شاري»، مناخ ودي جداً، أشخاص سود، زرق تقريباً

في وجه كل منهم ثلاثة ندوب متوازية (قبيلة سارا). مرحب بي على متن المركب - زورق من خشب قاتم. غريب كم هو متزعزع، حتى عندما أجلس مقرفصاً. مشهد توازن. لو كان القلب في الجانب الأيسر لكان واجباً إدارة الرأس قليلاً نحو اليمين،

الجيوب خالية، دون أي حركات كبيرة، لا شأن هنا لفن الخطابة.

تماماً: فن الخطابة مستحيل هنا. الزورق يبتعد منزلقاً فوق الماء.

خزانة الكتب

أحْضرَتْ من شقة الميت. كانت خالية بضعة أيام،
قبل أن أملأها بالكتب، كل الكتب المحزومة، الثقيلة. هكذا
تركت للأشباح أن تدخل. صعد شيء من الأسفل،
بطيئاً بعناد عمود زئبقي ضخم.
لم يكن لنا الحق بالالتفاف.

المجلدات القاتمة، أوجه مغلقة. تذكر بأولئك الجزائريين الذين
وقفوا على معبر فردريتشتراسي ينتظرون الشرطة
للتدقيق في جوازاتهم. بقي جواز سفري طويلاً داخل
الأقفاص الزجاجية. والضباب الذي كان يخيم ذلك اليوم على
برلين،
يخيّم الآن في خزانة الكتب. في الداخل يأس
قديم، له طعم باشندال[*] وسلام فرساي، له طعم عمر أقدم
من ذلك. المجلدات السود الثقيلة ـ سوف أعود إليها ـ

[*] باشندال: منطقة في فلاندرن على الحدود الفرنسية البلجيكية جرت عليها معارك ١٩١٤ ـ ١٩١٨.

ليست في الواقع إلا نوعاً من جوازات سفر ولكنها ضخمة بسبب كثرة الأختام التي تجمعت في داخلها طول مئات السنين.

واضح أنه لا يمكن السفر بهذه الأحمال الثقيلة، الآن عندما حان وقت الرحيل،

وعندما أخيراً. . .

هنا جميع المؤرخين القدامى، يمكنهم النهوض وإلقاء نظرة على عائلتنا. لا شيء يسمع ولكن شفاههم تتحرك باستمرار خلف الزجاج

(«باشندال». . . .) هذا يذكر بإدارة رسمية هرمة

(وما سيأتي قصة أشباح)، بمبنى يحتوي على صور

لرجال ماتوا منذ زمن طويل، معلقة خلف الزجاج، وفي أحد الصباحات ظهراً

كان ضباب وراء الزجاج. بدأوا يتنفسون في أثناء الليل.

ولكن لا تزال خزانة الكتب أكثر سلطة. النظرات فيما وراء الحدود!

غشاءٌ ومضيٌ، الغشاء الومضي لنهر أسود لا بد من أن تتمرأى فيه الغرفة.

ولن يكون لنا الحق بالالتفاف.

دروب

١٩٧٣

إلى أصدقاء خلف الحدود

I

كتبت لكم بجفاف شديد. ولكن ما لم أقدر أن أكتبه
انتفخ وانتفخ كمنطاد قديم
لكي يمضي أخيراً في سماء الليل.

II

الرسالة الآن عند الرقيب. يشعل مصباحه.
تتطاير كلماتي في بريقه، كمثل قردة فوق القضبان
تهتز، تجمد، ثم تكشف عن أسنانها!

III

اقرأوا بين السطور. سنلتقي بعد مئتي سنة
عندما ستصبح أجهزة التنصت في جدران الفندق نسياً منسياً،
وتخلد أخيراً إلى النوم، وتتحجر.

ذوبان الثلج ـ ٦٦

تنهار المياه تنهار هادرة، نوم مغنطيسي قديم.
يغمر السيل مقبرة السيارات، متلألئاً
خلف الأقنعة.
أقبض بقوة على حاجز الجسر.
الجسر: طائر حديدي كبير، يبحر فوق الموت.

خطاطة في أكتوبر

القاطرة البحرية مبقعة بالصدأ. ما الذي تفعله هنا
في عمق البلاد؟
إنها مصباح ثقيل خامد في البرد.
ولكن للأشجار ألوان حادة. إشارات إلى الضفة الأخرى!
كما لو أن بعضهم يريدون أن يُنقلوا إليها.

في طريق عودتي إلى البيت أرى الفطور الزرقاء تنبجس من
العشب.
إنها الأصابع الحائرة لذلك الذي
نشج وحده طويلاً في الظلام السفلي.
نحن للأرض.

أكثر بعداً

على المدخل الكبير للمدينة
عندما تكون الشمس منخفضة.
يزدحم السير، يزحف.
إنه تنين براق خامل.
أنا حرشفة من حراشف التنين.
فجأة الشمس المتأججة
في واجهة السيارة
تتدفق إلى الداخل.
أنا شفّاف
في أعماقي نص
كلماته مكتوبة بحبر خفي
تنبثق
لحظة يمسك بالورقة فوق اللهيب!
أعرف أن علي الذهاب بعيداً جداً
أن أعبر المدينة وأمضي إلى أبعد أيضاً،

حتى يحين وقت الخروج
والتجول طويلاً في الغابة.
أقتفي آثار الغرير.
تظلم، وتصعب الرؤية.
هناك، على الطحالب، ترقد حجارة.
بينها حجر ثمين.
يمكنه تحويل كل شيء
يقدر أن يجعل العتمة تشع.
إنه صمام أمان للبلاد كلها.
مصير كل شيء معلق به.
أنظرُ إليه، أمسّهُ. . .

الحرس الأمامي

أمِرْتُ
بالخروج إلى كومة من الحجارة
كمثل جثة شهيرة من العصر الحديدي.
بقي الآخرون في الخيمة نائمين،
ممدّدين كمثل قضبان دولاب.

السلطة في الخيمة للموقد: أفعى كبيرة
تبتلع كرة من النار وتهسهس.
ولكن لا ضجة هنا في ليل الربيع،
بين هذه الحجارة الباردة التي ترصد الضوء.

هنا في البرد أشرعُ بالطيران
كمثل ساحر، أطير إلى جسدها
ذي البقع البيضاء التي تركتها ملابس البحر.
كنا في أوج الشمس. كان الطحلب دافئاً.

أتلمس لحظات حارة
ولكن لا أقدر أن أبقى طويلاً.
يصفرون لي عبر الفضاء لكي أعود ـ
أزحف بين الحجارة. هنا والآن.

مهمة: ابق هناك حيث أنت.
حتى في هذا الدور المصطنع المضحك
ـ أنا الآن المكان المحدد الذي
يتكامل فيه التكوين.

يقبل الضوء، جذوع الشجر المتناثرة
تتلون الآن، أزهار الربيع المتجمدة
تمشي مستقصية بصمت
شخصاً اختفى في العتمة.

ولكن ابق هناك حيث أنت. وانتظر.
أنا قلق، عنيد، وحائر.
الأحداث التي ستجيء، جاءت!
هذا ما أحسّه. إنها في الخارج:

حشد أناس يضجّون خلف الحاجز.

لا يمكنهم العبور إلا واحداً واحداً.

يريدون الدخول. لماذا؟ يصلون واحداً

واحداً. أنا الباب الدوار.

على مدى الشعاع

I

النهر المغطى بالجليد يشع في الشمس
هنا سقف العالم
الصمت.

أجلس في زورق مقلوب
أبتلع مخدر الصمت
أدوخ ببطء.

II

عجلة تتسع إلى ما لا نهاية، تدور.
هنا المركز، جامد
تقريباً.

في البعيد تظهر الحركة: خطوات في الثلج
كتابة تنزلق على امتداد

الواجهات.

سير ضاج في الطرق العامة
وسير صامت
للأشباح

في الأبعد: الأقنعة التراجيدية تواجه الريح
وصخب السرعة ـ في الأبعد:
الانقضاض

حيث تتبخر آخر كلمات الحب ـ
قطرات ماء زاحفة
على أجنحة حديدية ـ

أشكال جانبية تهتف ـ سماعات مفصولة
يصطك بعضها ببعض ـ
كاميكازي!

III

النهر المغطى بالجليد يتلألأ ويصمت.

الظلال هنا منخفضة

ولا صوت لها.

إلى هنا كانت خطواتي انفجارات تحت الأرض

يلونها الصمت،

يلونها.

نظرة تخترق التربة

تنساب الشمس البيضاء عبر الضباب الدخاني.
يقطر الضوء، يتلمّس طريقه إليَّ هابطاً

حتى عيناي اللتان ترتاحان تحت الأرض
عميقاً تحت المدينة وتنظران إلى الأعلى

تريان المدينة من أسفل: الشوارع، أساس المنازل ـ
التي تذكّرْ بصور جوية لمدينة في الحرب

ولكن معكوسة ـ صورة تجسس:
مربعات صامتة بألوان كامدة.

هناك تُتَّخَذُ القرارات. عظام الأموات
لا يمكن تمييزها من عظام الأحياء.

يكبر ضوء الشمس، يمتد
إلى حجرات الطائرة وإلى قرون الجلبان.

مساء من كانون الأول ـ ٧٢

هوذا أنا الرجل الخفي، قد أكون
موظفاً لدى الذاكرة الكبيرة لكي أعيش الآن. وأسير محاذياً

الكنيسة البيضاء المغلقة ـ في الداخل قديس من خشب
يبتسم، يائساً، كما لو أن أحدهم جرده من نظاراته.

وحيد. وما تبقى هو الآن، الآن، الآن. قانون الجاذبية الذي يستعجلنا
للعمل في النهار وإلى السرير في الليل. الحرب.

الأبرشية المشتتة

I

رضينا بعرض بيوتنا.
فكَّرَ الزائر: تسكنون جيداً.
أكواخ الفقر في داخلكم.

II

داخل الكنيسة: قباب وأعمدة
بيضاء كالجص، كضمادة جص
لُفَّتْ على ذراع الإيمان المكسورة.

III

في داخل الكنيسة كأس التسول
ترتفع تلقائياً من على الأرض
وتمشي بين المقاعد.

IV

لكن ينبغي على أجراس الكنيسة أن تختبئ تحت الأرض.

معلقة في أنابيب المجاري.
تقرع تحت خطواتنا.

V

المسرنم نيكوديموس في طريقه
إلى العنوان. من يعرف العنوان؟
لا أعرف. ولكن إلى هناك نتجه.

آخر أيار

أشجار التفاح والكرز المزهرة تساعد الحي ليحلق
في ليلة أيار الوديعة المتسخة، سترة نجاة بيضاء، والأفكار
تمضي في طريقها.

عشب ونباتات ضارة لها ضربات أجنحة صامتة وعنيدة.
يشع صندوق البريد بهدوء، لا تمكن استعادة ما كُتِب.

ريح ناعمة ندية تتسلَّلُ تحت القميص وتتلمَّس القلب.
أشجار تُفّاح وكرز، تضحك بصمت من سليمان النبي
تزهرُ في نفقي. حاجتي إليها لا لكي أنسى
بل لكي أتذكر.

مرثاة

أفتح الباب الأول.
غرفة كبيرة تغمرها الشمس.
سيارة ثقيلة تمر في الشارع
وترُج أطباق الخزف.

أفتح الباب رقم اثنين.
أيها الأصدقاء! شربتم العتمة
لكي تصبحوا مرئيين.

الباب رقم ثلاثة. غرفة فندق ضيقة.
تُطلُ على شارع خلفي.
مصباح يتطايرُ شرراً على الإسفلت.
حمم جميلة للتجارب.

بلطيفيات

(البحيرات الشرقية)

١٩٧٤

I

كان ذلك قبل زمن الأعمدة التلغرافية.

كان جدي قبطاناً حديث العهد. كان يسجّل في المفكرة أسماء
البواخر التي
يقودها ـ
أسماء، أمكنة الوصول، كميات الماء المسحوبة.
أمثلة من سنة ١٨٨٤ :
باخرة تايغر، كابتن روفان، ١٦ قدماً، هول غفلي فيروسوند،
بريغ أويشن، كابتن أندرسن، ٨ أقدام، ساند أو فيورد
هورنوساند، فيروسوند
سانت بطرسبرغ، كابتن ليبنبرغ، ١١ قدماً، شتاتين ليباو
ساندهامن.

كان يخرجها إلى البلطيق، عبر ممرات التيه الخلابة، ممرات
الجزر والمياه.

وهؤلاء الذين كانوا يتلاقون فيها محمولين بضع ساعات أو بضعة أيام،

إلى أي حد كانوا يتعارفون ؟

حوار بإنكليزية ركيكة، فهم وسوء فهم ولكن

قليل جداً من الكذب المُتَعَمَّد.

إلى أي حد كانوا يتعارفون؟

عندما يكون الضباب كثيفاً: سرعة متوسطة، رؤية شبه معدومة.

كان شبه الجزيرة يخرج من اللامرئي وبخطوة واحدة يصبح قريباً جداً.

تجأر إشارة صوتية بين الدقيقة والأخرى. كانت العيون تقرأ اللامرئي مباشرة.

(هل كانت المتاهة في رأسه ؟)

كانت الدقائق تمضي.

كانت الأعماق والجزر الصغيرة تُسْتَذْكَر كالمزامير.

وذلك الشعور بالوجود «هنا لا في أي مكان آخر» الذي يجب الاحتفاظ به،

مثلما نحمل إناء مليئاً حتى الطفاح ولا يجوز أن تراق منه قطرة واحدة.

نظرة إلى الأسفل في غرفة المحركات.

للآلة المركبة، حياة طويلة كقلب الإنسان، تعمل

بحركات مرنة ناعمة وكبيرة، كبهلوانات من حديد، وتنتشر

الروائح

كأنها طالعة من مطبخ.

II

تهبُّ الريح في غابة الصنوبر. تهدرُ ثقيلةً وخفيفة،

يهدرُ البلطيق أيضاً في منتصف الجزيرة، في عمق الغابة

نكون في بَحْرٍ مفتوح.

كانت العجوز تكرهُ حفيف الشجر. ينغلق وجهها

كآبة كلما هبت العاصفة:

«علينا أن نفكر بأولئك الذين تحملهم البواخر».

لكنها كانت تسمع شيئاً آخر في الحفيف، تماماً مثلي، فنحن

قريبان.

(نمشي معاً. إنها ميتة منذ ثلاثين عاماً).

يقول الحفيف نعم ولا، فهم وسوء فهم.

يقول الحفيف، أطفال ثلاثة أصحاء، واحد في المصح، واثنان ميتان.

تيار الهواء الكبير الذي ينفخ حياة في بعض المشاعل، ويطفىء أخرى.

الشروط.

هدير: خَلِّصْني يا مولاي، المياه تضغط على روحي.

نمشي طويلاً ونُصغي، ونصل إلى حيث تُفْتَح الحدود

أو بالأحرى

حيث كل شيء يصير حداً. مكان مفتوح غارق في العتمة. يتدفق البشر

من أبنية يضيئها نور شاحب. ضوضاء.

هبة ريح جديدة، يعود المكان مهجوراً وصامتاً.

هبة ريح جديدة، تتحدث عن شواطئ أخرى.

الموضوع هو الحرب.

الموضوع أماكن يعيش سكانها تحت الرقابة،

والأفكار فيها مزودة بمخارج للطوارئ،

والحوار بين الأصدقاء يتحول إلى تجربة في ما تعني الصداقة حقاً.

وعندما يكون الإنسان مع الذين لا يعرفهم جيداً.

الرقابة: بعض الوضوح لازم

شريطة أن لا نغفل عن رؤية ما يحدث على تخوم الحوار:

شيء معتم، بقعة سوداء.

شيء يمكن أن يندفع إلى هنا ويهدم كل شيء. لا تدعه يغب عن نظرك!

بماذا يمكن تشبيهه؟ بلغم؟

كلا، سيكون ذلك تحديداً بالغ الوضوح. وإلى حد ـ سلمياً جداً ـ

لأن لحكايات الألغام على شاطئنا

نهاية سعيدة غالباً، الرعب محدود في الزمن.

كما حدث في قصة المركب المنار: «في خريف ١٩١٥ كان النوم

قلقاً. . . » إلى آخره. اكتُشِفَ لغم عائم، كان يتجه ببطء

نحو المركب المنار، كان يغرق ويطفو، وأحياناً

يحجبه الموج، وأحياناً يظهر كجاسوس بين الجمهور.

كان الطاقم مرتعباً، أطلقوا عليه النار. عبثاً. وفي النهاية

أرسلوا قارباً وربطوا اللغم بحبل طويل وسحبوه طويلاً بعناية

إلى الخبراء.

بعد ذلك عُرِضَ هيكل اللغم الأسود زينة في مشتل رملي

إلى جانب هيكل سترومبوس من الهند الغربية.

وتمضي ريح البحر بعيداً إلى الصنوبر الجاف، فهي على عجلة
لتنزلق على رمل المقبرة،
مروراً بالصخور المائلة، وأسماء الربابنة.
هدير جاف
لأبواب ضخمة تفتح وأبواب ضخمة تقفل.

III

هناك في زاوية الكنيسة الغوتلاندية شبه المظلمة، وفي هالة من
العفونة الخفيفة
جرن معمودية من حجر رملي ـ القرن الثاني عشر ـ لا يزال اسم
ناحته يلمع
كصف أسنان في قبر جماعي:
هيغفالدر،
الاسم موجود. وهنا نقشه البارز
وعلى جدران الأجران الأخرى، جمهرة أناسٍ، أشكال على
وشك
الخروج من الحجر.

هناك تنفلق النواة في عيون الخير والشر. هيرودوس خلف
الطاولة: يطير الديك المشوي ويصيح
«Christus natus est»

ـ تم إعدام الخادم ـ بالقرب منه، يولد الطفل، تحت عناقيد
الوجوه الوقورة اليائسة كمثل وجوه القردة الفتية. وفوق أغطية
المجارير الشبيهة بحراشف التنين ترن خطوات الأتقياء الهاربين.
(الصور في الذاكرة أكثر وضوحاً، منها في الرؤية المباشرة، وهي
أشد وضوحاً عندما يدور جرن المعمودية
كمثل دولاب يصر بطيئاً في الذاكرة) .
لا ملاذ في أي مكان. والخطر في كل مكان.
كمثل ما كان. وكمثل ما هي الحالة الآن.
لا سلام إلا في الداخل، في ماء الجرن، الذي لا يراه أحد،
لكن الحرب مشتعلة على جدرانه الخارجية.
ويمكن السلام أن يجيء قطرة قطرة، ربما في الليل
عندما نجهل كل شيء،
أو عندما يكون الإنسان ممدداً في مستشفى والمصل يتقطر فيه.
بشر، وحوش، زخارف.
لا طبيعة. زخارف.

السيد ب، رفيق سفري المحبوب، في المنفى،
الخارج من سجن روبن آيلاند، يقول:
«أحسدكم. لا تقول الطبيعة لي شيئاً.
غير أن بشر الطبيعة، أمر يقول لي شيئاً».

ها هم بشر الطبيعة.
صورة من ١٨٦٥. مركب بخاري يرسو في مدخل المرفأ.
خمسة أشكال. سيدة ترتدي تنورة مُسَلَّكَة بلون فاتح، لها شَكْلُ
جرسٍ، شَكْلٌ زهرة.
الرجال كمثل دمى في مسرحية فلاحية هزلية.
كلهم جميلون، مترددون، على وشك أن يُمْحوا.
يصعدون إلى اليابسة فترة وجيزة. يُمْحون.
المركب البخاري، نموذج منقرض ـ
مدخنة عالية، صحن مفتوح، صدر ضيق ـ
غريب حقاً، كصحن هابط من الفضاء.
كل ما تبقى في الصورة يصدم بواقعيته الشديدة:
تجعدات الماء،
الضفة الأخرى ـ
يمكن أن أمرر يدي على منحدراته الصلبة،

يمكن أن أسمع حفيف الصنوبر.

قريب جداً.

اليوم.

الأمواج راهنة.

الآن، بعد مئة سنة. تصل الأمواج من

No mans's water

وترتطم بالصخور.

أتمشّى على طول الشاطىء. لم يعد المشي على الشاطئ مثلما كان من قبل.

يجب أن نتكلّم بصوت عال، وأن نجري حواراتٍ عديدة في الوقت ذاته،

جدراننا بالغة الرقة.

لكل شيء ظل جديد خلف الظل المعتاد،

ويمكن سماعه يزحف حتى في سواد الليل.

ليل.

تدور القبة الفلكية للخطط. عدساتها تتفحص العتمة.

سماء الليل تفيض أرقاماً، تغذي
خزانة براقة،
أثاثاً، تسكن فيه طاقة جيش من الجراد معرياً الكثير من فدادين
الأرض الصومالية في نصف ساعة.

لا أدري إن كنا في بداية المطاف أو في آخره.
لا يمكن إعطاء خلاصة، كل خلاصة مستحيلة.
الخلاصة لفاح -
(انظر قاموس الخرافات:
اللفاح
نبتة عجائبية
تُطْلِقُ صيحةً مرعبةً عندما تُقْتَلع من التراب
حتى ليسقط من يقتلعها ميتاً. تُسْنَد هذه المهمة إلى كلب. . .)

IV

خطط قريبة،
في منأى عن الريح.

أشنة: تشع غابات الأشنة في الماء الصافي، غابة فتية، يشتهي
المرء الهجرة إليها، التمدد بقامته كلها فوق صورته المنعكسة
ويغرق إلى
عمق ما ـ تطفو الأشنة فوق الماء مع فقاقيع الهواء، كما نطفو
بأفكارنا.

سمكة البلهد. هي ضفدع كان يريد أن يتحول إلى فراشة، ونجح
حتى الثلث،
يختبىء في العشب البحري لكن يرفع
بالشباك، معلقاً بشوكه المسكين وثآليله ـ
عندما يفك من عقد الشبكة تلمع الأيدي بالرعام.

السمك الصخري: بين الأشنة التي تدفئها الشمس في الخارج،
تعدو الحشرات الصغيرة ـ
على عجلة من أمرها كعقرب الثواني ـ تلقي الصنوبرة ظلاً،
يمضي
ببطء كعقرب الساعة ـ في داخلي ، يتوقف الزمن،
زمن بلا نهاية، الزمن الضروري لنسيان جميع اللغات
ولابتكار الحركة الأبدية.

في منأى عن الريح يمكن أن نسمع العشب ينمو: طرقات طبل
خفيفة من
أسفل، هدير واهن لملايين الشعل الصغيرة، هكذا نسمع العشب
ينمو.

الآن: اللجة، دون أبواب، الحدود المفتوحة
تكبر وتتسع،
بقدر ما تتمطى.

ثمة أيام يكون فيها البلطيق سقفاً هادئاً لا نهائياً.
أحلم آنذاك ببراءة كاملة، بشيء يزحف على هذا السقف
محاولاً أن يفك حبال الأعلام
وأن يرفع
خرقة.

علم جَعَّدَتْهُ الريح، أسود من المدخنة
وأبيض من الشمس، يمكن أن يكون علماً للجميع.

لكن الطريق إلى ليوبايا لا يزال طويلاً.

V

٣٠ تموز. الأرخبيل منحرف ـ اليوم للمرة الأولى منذ سنوات،
يعج الماء بقناديل البحر،
متقدمة بهدوء ولطافة،
منتمية إلى الخط البحري نفسه:
أورليا،
تطفو
كمثل أزهار في جنازة بحرية، عندما تُسْحَب من الماء
تفقدُ شَكْلها، كما تسحب من الظل حقيقة لا تدقُّ عن الوصف
وتأخذ شكل خثيرة لا شكلَ لها ـ
فهي حقاً لا تُتَرجم، لا تقدر إلا أن تظل في مادتها.

٢ آب. شيء يريد أن يقال ولكن الكلمات ترفض ذلك.
شيء لا يمكن قوله،
الحبسة،
لا كلمات ولكن ربما أسلوب. . .

يحدث أحياناً أن نستيقظ في الليل

وأن نلقي بسرعة بضع كلمات
على الورقة الأكثر قرباً ، في هامش جريدة
(تتوهج الكلمات بالمعاني!)
لكن في الصباح: لا تعود الكلمات نفسها تريد أن تقول أي
شيء، خربشات، زلات لسان.
أو شظايا للأسلوب المعتم الكبير الذي كان قد لامسنا؟

تأتي الموسيقى إلى أحدهم، إنه مؤلف، يعزف، ناجح مهنياً،
ويصبح مديراً للكونسرفاتوار.
تتغير الأحوال، وتدينه السلطات.
يعين تلميذه ك مدعياً عاماً.
يُهَدَّد، يُجَرَّد من منصبه، يُطْرَد.
بعد بضع سنوات يخف الظلم، ويُرَدُّ له الاعتبار.
وقتذاك يصاب بنزيف دماغي: شلل في الجهة اليمنى مع حبسة،
لا يقدرُ أن يستوعب
إلا جملاً قصيرة، لا يعود يجد الكلمات.
لا يعود المديح ولا الذم يبلغانه.
ولكن الموسيقى تبقى، لا يزال يتابع تأليفه بأسلوبه الخاص،
ويصبح معجزة طبية فيما تبقى له من العمر.

كان يكتب موسيقى لنصوص لم يعد يفهمها ـ
في الطريقة نفسها
نعبر بحياتنا عن شيء ما
في جوقة زلات اللسان.

دامت دروس الموت فصولاً عدة. كنت أحضر
مع رفقاء لا أعرفهم
(من أنتم؟)
ثم ذهب كل منهم في طريقه، جانبياً

نظرت إلى السماء وإلى الأرض وباستقامة
كتبت مذاك رسالةً طويلة إلى الموتى
بآلة غير مزوّدة بشريط حبر،
هكذا دقت الكلمات عبثاً، لم يعلق منها شيء.

يدي على قبضة الباب، أجس نبض البيت.
كم هي الجدران مليئة بالحياة
(لا يتجرأ الأطفال على النوم وحدهم في الغرفة ـ فما
يمنحني الأمان، يقلقهم).

٣ آب. هنالك في العشب الرطب

تنزلق تحية من القرون الوسطى: بزاقة الكرم، رقيقة بصفرة

رمادية مشعة ولها بيت متموج،

زرعها رهبان كانوا يحبون الحلزون -

ذلك أن الفرنسيسكانيين أتوا إلى هنا،

كسروا الحجارة وأحرقوا الكلس، أصبحت الجزيرة لهم سنة

١٢٨٨ - تقدمة

من الملك ماغنوس

(«هذه الصدقة وما يشبهها / ذخر لهم في الآخرة»)

سقطت الغابة، اشتعلت الأفران، أبحر الكلس إلى داخل

أبنية الدير. . .

الأخت بزاقة

شبه جامدة في العشب، قرونها الاستشعارية تنكمش وتنبسط،

اضطرابات وتردد. . .

كم تشبهني في بحثي!

الريح التي عصفت بدقة طول النهار

- في الجزر الصغيرة الأخيرة، الأعشاب كلها معدودة -

رقدت بهدوء داخل الجزيرة. لهيب عود الكبريت بقي منتصباً.
اللوحة البحرية واللوحة الغابية تعتمان سوياً.
تعتم كذلك الشجرة الخضراء ذات الطوابق الخمسة الخضراء.
«كل صيف هو الأخير». كلمات فارغة
لمخلوقات منتصف هذا الليل من نهاية الصيف
حيث الجداجد تئز مسعورة،
والبلطيق قريب،
والحنفية الوحيدة، تنهض كتمثال خيال
بين زهور النسرين.
للماء طعم الحديد.

VI

حكاية جدتي قبل أن تُنْسَى: مات أبواها شابين،
والدها أولاً. عندما شعرت الأرملة أن المرض سوف يأخذها هي أيضاً
أخذت تنتقل مع ابنتها من بيت إلى بيت ومن جزيرة إلى جزيرة.
«من يرغب بالعناية بماريا!» يحتضنها بيت غريب
على الضفة الأخرى. ميسورون.

لكن هؤلاء لم يكونوا طيبين. قناع التقوى يتشقَّق.
تنتهي طفولة ماريا قبل الأوان، وتعيش خادمة دون إجرة
في برد مستمر. سنوات عديدة. دوار البحر المتواصل
في الرحلات المجذافية الطويلة، والرعب المهيب
خلف الطاولة، الوجوه، جلد سمكة الزنجور
المتكسر في الفم: كوني ممتنة، كوني ممتنة.
لم تلتفت إلى الوراء أبداً،
بفضل هذا، تمكنت من رؤية الحياة الجديدة
وتمسكت بها.
أفلتت من الطوق!

أتذكرها. كنت ألتصق بها
وفي لحظة الموت (لحظة العبور) أرسلت
فكرة،
حتى أنا ـ ابن السنوات الخمس ـ فهمت ما حصل
قبل نصف ساعة من ندائهم.
أتذكرها. في الصورة الثانية المصفرة هذا
المجهول ـ
الذي يعود تبعاً لملابسه إلى منتصف القرن الأخير.

رجل في الثلاثين من العمر: الحاجبان كثيفان،
الوجه يحدق في عيني مباشرة
ويهمس: «أنا هنا».
لكن لم يعد هناك أحد يتذكر من «أنا».
لا أحد.

سل؟ عزلة؟

توقف مرة
في المنحدر الصخري للمحيط بين العشب المشبع بالضباب
وشعر بالعصابة السوداء على عينيه.

هنا، خلف الأجمة الكثيفة ـ أهذا هو أقدم بيت في الجزيرة؟
لكوخ الصياد المنخفض الذي يعود إلى ٢٠٠ سنة خشب متصالب
غُطِّيَ
بوبر رمادي.
وأعيدَ من جديد القفل النحاسي الحديث على جميع الأشياء،
مشعاً كحلقة في أنف ثور كبير
يرفض النهوض.

حطب كثير يربض هنا. وعلى السطح، لوحات القرميد العتيقة

انهارت في كل مكان الواحدة فوق الأخرى.

(الشكل الأساسي الذي خربته حركة دوران الأرض في مجرى

السنين)

هذا يذكّرني بشيء. . . كنت هناك. . . انتظروا: إنها

مقبرة اليهود العتيقة في براغ،

هناك يعيش الموتى قريبين واحدهم إلى الآخر أكثر منهم في

الحياة، الحجارة متراصة متراصة.

ما أكثر الحب المطارد! كتابة الأشنة بلغة مجهولة على لوحات

قرميد، هي

شواهد غيتو سكان الأرخبيل، صخور

منتصبة ومنهارة. -

يشع الكوخ نوراً

من كل الذين حملتهم موجة، وقادتهم ريح

إلى مصائرهم هنا.

حاجز الحقيقة

١٩٧٨

مواطنون

في الليلة التي تلت الحادث حلمت برجل مجدور

كان يغني في الأزقة.

دانتون!

لا الآخر - روبيسبيير لا يقوم بمثل هذه النزهات.

يمضي روبيسبيير كل صباح ساعة دؤوبة في زينته،

يخصص بقية يومه للشعب.

في جنة الشتائم، بين آلات الفضيلة.

دانتون -

أو من وضع قناعه -

كان يسير كمن يسير على عكاز بهلوان.

كنت أرى وجهه من أسفل:

كمثل قمر مجدور

نصف مضاء ونصف حزين.

كنت أريد أن أقول شيئاً.

عبء على صدري، عبء

يُسَيِّرُ ساعات الحائط،

يُدَوِّر العقاربَ: سنة ١، سنة ٢. . .

رائحة ثقيلة كنشارة في قفص النمر.

و ـ كما الأمر دائماً في الحلم ـ لا شمس.

لكن الجدران كانت تلمع

في الأزقة المتعرجة

هابطةً نحو قاعة الانتظار، القاعة المقوّسة،

غرفة الانتظار حيث جميعنا. . .

ممر المشاة

عندما أعبر الشارع الذي تبعني طويلاً،
حيث يتلألأ فوق البحيرات صيف الأرض الخضراء،
تهب ريح جليدية على العين وترقص شموس
في مشكال الدموع.

تحوم حولي قوة الشارع كلها
لا تتذكر شيئاً ولا تريد شيئاً.
في باطن الأرض، تحت حركة السير، تنتظر
بهدوء ألف عام الغابة التي لم تولد بعد.

أشعر أن الشارع يراقبني.
نظرته قاتمة إلى درجة أن الشمس نفسها
تتحول إلى كرة رمادية في فضاء أسود.
غير أنني أشع في هذه اللحظة! الشارع يراقبني.

مضاءة

في وسط الغابة مضاءة غير مرتقبة لا يكتشفها
إلا التائه.
تحيط بالمضاءة غابة تختنق شيئاً فشيئاً. جذوع
سوداء بلحية رمادية من الطحلب. الأشجار
المتداخلة ميتة حتى القمم حيث تلامس الضوء بعض الغصون
الخضراء.
في الأسفل: الظل الذي يحضن الظل، الخث الذي ينتشر.
لكن من المستغرب أن العشب أخضر وحيوي في هذا المكان
المفتوح.
هنا ترقد حجارة كبيرة، تبدو كأنها منظمة. لا شك في أنها
أساس
بيت، لكن قد أكون على خطأ. من عاش هنا؟ لا يقدر أحد
أن يجيبنا. الأسماء هنالك في أرشيف
لم يعد أحد يفتحه (الأرشيفات وحدها تحتفظ بشبابها). ينقرض
التقليد الشفوي
وتنقرض معه الذكريات. القبيلة الغجرية تتذكر ولكن

الذين يتقنون الكتابة ينسون. دوّنوا وانسوا.

يضجُّ الكوخ بالأصوات، إنه مركز العالم. لكن المقيمين فيه يموتون أو يرحلون، والتأريخ ينتهي. يبقى الكوخ مهجوراً سنوات عديدة.

يتحول إلى سفينكس. في الأخير يختفي كل شيء، باستثناء حجارة الأساس.

كنت قد جئت إلى هنا بطريقة ما، لكن علي أن أرحل الآن. أغوص

في الأحراج الصغيرة. لا يمكن اجتيازها إلا بخطوة إلى الأمام وخطوتين جانبياً، كمثل خيال الشطرنج. لكن الغابة تضيء رويداً رويداً ويعود النور. تطول الخطوات. ممر يشدُّ نفسه إليَّ.

عدت إلى شبكة الاتصال.

في الشمس، تجلس خنفساء على عمود كهرباء يصدر طنيناً عالي التوتر.

تحت أغمادها البراقة تهدأ أجنحتها منطوية بدقة كمظلة جهّزها اختصاصي محترف.

بداية رواية لليلة في نهاية الخريف

لسفينة الركاب رائحة الزيت وشيء يطقطق باستمرار
كالوسواس. يشتعل الضوء الكشّاف. نقترب من الرصيف. أنا
الوحيد الذي
سينزل هنا. «هل تحتاج إلى مجاز؟» كلا. أقوم
بخطوة كبيرة مترددة داخل الليل، ثم ها أنا فوق المجاز في الجزيرة.
أشعر
أني مبلل وثقيل، كفراشة خرجت لتوها من الشرنقة، تتدلى من
يدي الأكياس البلاستيكية كأجنحة مشوهة. ألتفت
وأرى السفينة تنزلق بعيداً بنوافذها المضاءة،
ثم أتلمس طريقي إلى البيت المهجور منذ فترة طويلة. المنازل
المجاورة مهجورة كلها. . . النوم مريح هنا. مستلقياً
على ظهري لا أعرف إن كنت نائماً أو صاحياً. بعض الكتب
التي قرأتها تمر في ذاكرتي، كمثل أولئك البحارة الشراعيين
القدامى الذين أبحروا إلى مثلث برمودا
واختفوا دون أن يتركوا أثراً. . . يُسْمَعُ صوتٌ أجوف، طبل
شارد.

شيء تضربه الريح مرة، مراراً بشيء آخر تمسك به الأرض.

لو أن الليل ليس مجرد غياب للضوء، لو أن الليل شيء موجود حقاً، لكان هو نفسه هذا الصوت.

صوت عبر سماعة طبية لقلب متباطئ، يخفق، يصمت قليلاً ثم يعود.

كما لو أنه يتحرك متلوياً على خط الحدود. أو أن شخصاً يطرق جداراً،

شخصاً ينتمي إلى العالم الآخر، لكنه بقي هنا، يطرق، يريد العودة.

فات الأوان! فاته وقت الوصول إلى الأسفل، والصعود إلى الأعلى

وفاته الصعود إلى السفينة. . . العالم الآخر هو كذلك عالمنا.

أشاهد في اليوم الثاني غصناً بورق ذهبي أسمر منكمش.

جذر يزحف. صخور لها وجوه. الغابة مليئة

بكائنات وحشية بلا قيود، أعشقها.

إلى ماتس وليلي

خط تغيير التوقيت جامد بين ساموا وتونغا، لكن خط
قسمة منتصف الليل ينزلق فوق المحيط والجزر وسطوح الأكواخ.
هناك، في الجهة الأخرى، ينامون. الوقت هنا في فرملاند،
منتصف النهار، نهار
ساطع في بداية الصيف ـ رميت حقائبي جانباً. هنيهة سباحة
في السماء، كم هو الهواء أزرق. . . فجأة أرى التلال في الضفة
الأخرى للبحيرة: جرداء. تشبه الأجزاء المحلوقة من جمجمة
مريض
ستُجْرَى له عملية جراحية في الدماغ. كانت دائماً موجودة هناك
لكن لم أنتبه إليها إلا الآن. غمامات وتيبّس أعناق. . .
الرحلة مستمرة. الطبيعة الآن مغطاة بالرسوم والخطوط،
كمثل النقوش القديمة التي يتحرك فيها البشر صغاراً بين التلال
والجبال،
مذكرة ببيوت النمل والقرى التي تتكوّن هي كذلك من آلاف
الرسوم.

كل نملة بشرية مدت خطها إلى النقش الكبير، لا مركز هنا،
كل شيء مُفْعَم بالحياة. شيء آخر: الأشكال دقيقة لكن لكل شكل
وجه خاص، أضفاه عليه النقّاش، كلا، ليسوا نملاً.
معظمهم أناس بسطاء لكن يعرفون أن يكتبوا أسماءهم. أما بروتبوس فإنسان حديث
ويعبر بطلاقة في جميع الميادين، عنده «رسائل واضحة» أو ترهات،
تبعاً للفريق الذي ينتمي إليه حالياً. لكنه لا يعرف أن يكتب اسمه.
لذلك يتراجع بخجل كمستذئب أمام طلقة الفضة.
فالواقع أن المؤسسة والدولة لا تطالبانه بذلك. . .
الرحلة مستمرة. يقيم في هذا البيت رجل يئس ذات مساء
فأطلق رصاصاً حقيقياً على أرجوحة شبكية خالية تتمايل فوق العشب.
خط قسمة منتصف الليل يقترب، قريباً سيجتاز منتصف الدورة.
(لا تزعموا أنني أريد إعادة عقرب الساعة إلى الوراء!)
سيتدفق التعب إلى داخل الشق الذي تركته الشمس وراءها. . .

لم أر في حياتي إطلاقاً ماسة اللحظة الخاصة تمد خطاً لا يُمْحَى

عبر صورة العالم.

كلا، إنه صوت الاحتكاك، الاحتكاك المستمر الذي محا

الابتسامة الغريبة المنورة.

لكن هناك شيء يظهر من جديد، بفعل الاحتكاك نفسه، وها هو

يبدأ بأن يصبح شبيهاً بابتسامة،

لا نزال نجهل ما الفائدة منه. شيء مفتوح. ثمة شخص يمسك

بذراعي كلما حاولت أن أكتب.

في شتاء ١٩٤٧

أيام المدرسة ـ تلك القلعة المزدحمة الصاخبة.
عدت في الغسق، تحت اللافتات إلى البيت.
آنذاك جاء همسٌ بلا شفاه: «استيقظ أيها المسرنم!»
الأشياء كلها أشارتْ إلى الغرفة.

الطابق الخامس، غرفةٌ مطلةٌ على الفناء. كان المصباح يشتعل
في دائرة من رعب الليالي كلها.
جلستُ بلا أجفان على السرير وشاهدتُ
شريطاً تلو الآخر من صورٍ لأفكار مرضى نفسيين.

كما لو أن هذا كان أمراً ضرورياً. . . .
كما لو أن الطفولة الأخيرة تحطمت
كي تتمكن من عبور القضبان.
كما لو أن هذا كان أمراً ضرورياً. . .

قرأتُ في كتبٍ من زجاج ولم أر إلا الشيء الآخر:

البقع التي كانت تزدحم للخروج من ورق الجدران.
كان هؤلاء الأموات الأحياء
الذين أرادوا أن تُرْسَم صورهم!

حتى مطلع الفجر، عندما أتى عمال التنظيفات
يصلصلون بصناديقهم الحديدية في الأسفل،
كانت الأجراس الرمادية الوادعة في الحديقة الخلفية،
تعزف لي لكي تهدهدني.

شوبيرتيانا

I

في عتمة المساء، في مكان خارج نيويورك، نقطة للرؤية
يمكن منها بنظرة واحدة رؤية بيوت ثمانية ملايين
من البشر.
المدينة الضخمة هناك، ركام طويل متوهج، تبدو جانبياً كمثل
مجرة لولبية.
في هذه المجرة تنزلق فناجين القهوة على طاولة البار، الواجهات
تتسول
العابرين، زحمة أحذية لا تترك أثراً.
سلالم النجاة المتسلقة، أبواب المصاعد المتداخلة، موج متواصل
من الكلام وراء
أبواب زُوِّدَت بأقفال متينة.
أجساد مترهلة نصف نائمة في عربات المترو، سراديب الموت
المندفعة إلى الأمام.
أعرف أيضاً ـ دون أي إحصاء ـ أن شوبرت يعزف في هذا الوقت
بالذات في

غرفة هناك، وأن موسيقاه عند بعضهم أكثر واقعية
من جميع الأشياء الأخرى.

II

فضاءات الدماغ البشري اللانهائية اختزلت في حجم
قبضة.
في نيسان تعود السنونو إلى عشها الذي بنته العام الماضي تحت
المزراب
في هذا المستودع بالذات وفي هذه المنطقة نفسها.
تنطلق من ترانسفال، تعبر خط الاستواء، وتطير ستة أسابيع
فوق قارتين، ثم تتجه رأساً إلى هذه النقطة المختفية
في مدى الأرض.
وهذا الذي يلتقط إشارات حياة كاملة ببعض ألحان
شبه عادية ووترية خماسية،
والذي يجعل نهراً يتدفق في ثقب إبرة
هو سيد من فيينا لا يزال شاباً بديناً، يلقبه الأصدقاء
«بفطر» نام ونظاراته على عينيه،
يجلس كل صباح في الساعة المحددة وراء مكتبه.
فوقه تدب الحياة في القطعة الموسيقية المدهشة بأرجلها الألف.

III

تعزف الخماسيات الوترية. أعود إلى البيت عبر غابات دافئة
ذات تراب رخو تحت قدمي،
أتكور كالجنين، أنام، أتدحرج في مستقبل منعدم الجاذبية،
أشعر فجأة أن للنباتات أفكاراً.

IV

ثمة أشياء كثيرة علينا أن نثق بها لكي نتمكن من أن نعيش حياتنا
اليومية دون
أن نغوص في الأرض!
أن نثق بكتل الثلج التي تتشبث بسفح الجبل
فوق القرية.
أن نثق بوعود الصمت وابتسامة التفاهم، أن نثق بأن البرقيات
المشؤومة لا تخصنا، وأن ضربة الفأس المفاجئة من الداخل
لن تأتي.
أن نثق بمحاور العجلات التي تحملنا على الطريق في وسط سرب
النحل الفولاذي المكبر ثلاثمئة مرة.
لكن في الواقع لا شيء من هذا كله يستحق ثقتنا.
تقول الخماسيات الوترية أن بامكاننا أن نثق بأشياء أخرى.

V

نزدحم أمام البيانو ونعزف بأربع أيد المقام السادس، حوذيون في

العربة ذاتها،

مشهد سخيف إلى حد ما.

تبدو أيدينا كأنها تنقل أثقالاً رنانة إلى الأمام وإلى الوراء، كما لو

أننا

ننقل لحناً طباقياً

محاولين أن نزعزع التوازن المقلق لذراع الميزان الكبيرة: للفرح

والعذاب الوزن نفسه تماماً.

قالت إن «هذه الموسيقى بطولية جداً»، وهذا صحيح.

لكن هؤلاء الذين ينظرون بعين الحسد إلى أناس الفعل، هؤلاء

الذين يحتقرون أنفسهم في أعماقهم

لأنهم ليسوا قتلة

لا يرون أنفسهم في هذا كله.

وهؤلاء الذين يشترون البشر ويبيعونهم معتقدين أن بالإمكان

شراء الجميع،

لا يرون أنفسهم في هذا كله.

هذه ليست موسيقاهم. اللحن الطويل الذي يبقى هو نفسه في

جميع

التحولات، عذباً ولامعاً أحياناً، وأحياناً خشناً وقوياً

أثر بزّاقة وسلك فولاذي.

الطنين العنيد يرافقنا الآن

في صعودنا من الأعماق.

III

قاعة العرض

أمضيت ليلتي في نزل على طريق (أوروبا ٣).
كانت هناك في غرفتي رائحة شممتها من قبل
في المجموعات الآسيوية في أحد المتاحف:

أقنعة يابانية ومن التيبت على حائط فاتح اللون.

لكنها لم تعد الآن أقنعة، وإنما أصبحت وجوهاً

تعبر حائط النسيان الأبيض
لكي تتنفس، ولكي تسأل عن بعض الأشياء.
أبقى مستيقظاً وأراقبها تتعارك
تختفي وتظهر.

بعضها تعير قسماتها إلى أخرى، تغير الوجه
في عمق أعماقي

حيث يتفاوض النسيان والذاكرة.

اللمسات التي تنقح النسيان
تعبر الجدار الأبيض،
تختفي وتظهر.

ثمة هنا حداد لا يُسمّى كذلك.

أهلاً في قاعات العرض الحقيقية!
أهلاً بالعارضين الحقيقيين!
أهلاً بالقضبان الحقيقية!

فتى الكاراتيه الذي شَلّ شخصاً
يواصل الحلم بربح سريع.

لا تتوقّف هذه السيدة عن شراء أشياء
كي تقذفها في فوهة الفراغات
التي تتسلل خلفها.

لا يجرؤ السيد إكس أن يغادر شقته.
حاجز أسود من أناس ملتبسين
يقفون بينه
وبين الأفق الذي يتراجع باستمرار.

هي التي هربت يوماً من كارليا
هي التي كانت تتقن الضحك. . .
تظهر الآن،
ولكنها خرساء، متحجرة، تمثال سومري.

كما في الماضي عندما كنت في العاشرة من عمري وكنت أعود
متأخراً إلى البيت.
انطفأت الأضواء في مطلع الدرج
لكن بقي المصعد حيث كان يشع، وصعد
كساعة غطس من أعماق مظلمة،
طابق بعد الآخر بينما كانت وجوه متخيلة
تلتصق بالقضبان. . .

ولكنها لم تعد الآن وجوهاً متخيلة، بل حقيقية.

أتمدد كمثل شارع فرعي.

ينبثقون عديدين من الضباب الأبيض.
ماضياً كنا نتلامس، حقاً!
ممرٌ طويلٌ مضيءٌ له رائحة الفينول.
الكرسيُ المتحرك. الفتاة المراهقة
تتعلم النطق بعد حادث الاصطدام.

هو الذي كان يحاول أن يصرخ تحت الماء
فدخلت فيه كتلة العالم الباردة من
أنفه وفمه.

قالت أصوات في مكبّر الصوت: «السرعة سلطة
السرعة سلطة!
العب اللعبة،
The show must go on!»

ننتقل في نجاحنا المهني خطوة خطوة جامدين
كأننا

في مسرح النو
بأقنعة، وأغنية صارخة: أنا، هذا أنا!
المهزوم
ممثل بغطاء ملفوف.

قال فنان: سابقاً كنتُ كوكباً
له جو خاص جداً وكثيف.
كانت إشعاعات الخارج تتكسر فيه أقواس قزح.
وكانت العواصف المتواصلة ترعد هناك في داخله.

أنا الآن منطفئ وجاف ومنفتح.
لم تعد لدي اليوم حيوية الطفولة.
لي جانب حار وجانب بارد.

لم تعد هناك أقواس قزح.

أمضيت الليل في البيت المدوي.
كثر هم الذين يريدون عبور الجدران
ولكن معظمهم لا يبلغون ذلك:

يغمرهم هدير النسيان الأبيض.

أغنية مجهولة تغرق في الجدران.
طرقات حذرة لا تريد أن يسمعها أحد
تنهدات متطاولة
أجوبتي القديمة تزحف يتيمة.
أسمع التوبيخ الآلي للمجتمع،
صوت الجهاز الكبير للتهوية،
كهواء المصنع في ممرات منجم
ستمائة متر تحت الأرض.

عيوننا مفتوحة باتساع تحت الضمادات.

ليتني تمكنت على الأقل من جعلهم يشعرون
أن الاهتزاز هنا تحت أقدامنا
يعني أننا نقف على جسر. .

عليّ غالباً أن أبقى دون حراك.

أنا مساعد لضارب السكاكين في السيرك!
الأسئلة التي تخرج مني في لحظة غضب
تعود إليّ صارخة

لا تصيبني، لكنها تُسَمِّرُ شبحي
بخطوطه الكبرى،
التي تبقى في المكان عندما أغادره.

عليَّ غالباً أن أصمت. إرادياً!
لأن «الكلمة الأخيرة» تُقال ويُعاد قولها دائماً.
لأن صباح الخير ووداعاً...
لأن نهار اليوم...

لأن الهوامش في النهاية تعبر
فوق الأطراف
وتغمر النص.

أمضيت ليلتي في نزل المسرنمين.
بعض الوجوه هنا يائسة

وبعضها ممحوة
بعد حجها إلى بلاد النسيان.

يتنفسون، يختفون، ويصارعون لكي يعودوا،
يمرون لا يلتفتون إلي
يريدون جميعاً أن ينضموا إلى أيقونة العدل.

يحدث، لكن نادراً
أن أحدنا يرى حقاً الآخر:

أحدهم يظهر لحظة
كما في صورة فوتوغرافية لكن بوضوح أكبر،
مع شيء في خلفية الصورة
أكبر من ظله.

ينهض واقفاً بقامته كلها أمام الجبل.
إنه بالأحرى صدفة حلزونية أكثر مما هو جبل.
بيت أكثر مما هو صدفة حلزونية.
ليس بيتاً لكن ثمة غرف كثيرة.

هذا غير واضح لكنه قاهر.

يولد في هذه الصدفة وتولد فيه.

تلك حياته، تلك متاهته.

IV

تحت الصفر

نحضر حفلة لا تحبنا. تخلع في النهاية قناعها
وتظهر وجهها الحقيقي: محطة فرز. هياكل
باردة على سكك في الضباب. طبشورة خربشت
على أبواب العربة.
لا تقولوا هذا لأحد، لكن هنا كثير من العنف المردوع.
لذا فالتفاصيل ثقيلة. ومن الصعب مشاهدة الأشياء الأخرى
الموجودة أيضاً: انعكاسات شمس تتنقل على جدار البيت، و
تنزلق
داخل غابة لاواعية من وجوه وامضة، جملة إنجيلية لم تُكتب من
قبل أبداً:
«تعال إلي، لأنني مثلك متناقض»
غداً سأعمل في مدينة أخرى. أسرع إليها عبر ساعة الصباح،
هذه الأسطوانة الضخمة السوداء المزرقة. يحوم أوريون فوق

الأرض المجلدة. يقف الأولاد في مجموعة صامتة بانتظار باص
المدرسة، أولاد
لا يصلي أحد لأجلهم. يتنامى الضوء ببطء كمثل شعرنا.

المركب ـ القرية

مركب صيد برتغالي، أزرق، ماء الإبحار يبسط
الأطلسي جزئياً.
نقطة زرقاء في البعيد، وأنا هناك مع ذلك ـ الستة الآخرون
في المركب لا يلاحظون أننا سبعة.

شاهدت صناعة مثل هذا المركب، ممدداً كمثل مزهر كبير
لا أوتار له
في المنخفض الفقير: القرية، حيث يغسل ويغسل بغضب،
بصبر، بكآبة.

سواد الناس على الشاطئ. حشد يتفرق،
تنقل مكبرات الصوت.
قاد الجنود مرسيدس الخطيب في الازدحام، كانت الكلمات ترن
على
واجهاتها المعدنية.

جبال سوداء

في المنعطف اللاحق أفْلِتَ الباص من ظل الجبل، البارد،
مديراً خطمه إلى الشمس وزحف يهدر صعوداً.
تزاحمنا في الباص. كان بيننا التمثال النصفي للديكتاتور،
ملفوفاً بجريدة. كانت قنينة تنتقل من فم إلى فم.
الموت، هذه الشامة بالولادة كبرت عند الجميع بسرعة متفاوتة.
إلى الأعلى في الجبل تمكن البحر الأزرق من اللحاق بالسماء.

باتجاه البيت

كان الحديث الهاتفي يتدفق في الليل ويتوهج في
الأرياف والضواحي.
بعد ذلك غفوتُ قلقاً في سرير الفندق.
كنت أشبه إبرة بوصلة يحملها العداء
في الغابة خافق القلب.

بعد جفاف طويل

الصيف رمادي هذه اللحظة، مساء غريب.
ينزلق المطر من السماء خفية
ويحط على الأرض هادئاً
كما لو أن عليه أن يحتوي نائماً.

فقاعات الماء تزدحم على سطح الخليج
إنه السطح الوحيد الموجود ـ
وليس الباقي إلا علواً وعمقاً
يصعدان ويهبطان.

جذعا صنوبرتين
ينبثقان ويمتدّان في طبول طويلة ومجوّفة.
بعيدة هي المدن والشمس.
الرعد في الأعشاب العالية.

يمكن الاتصال هاتفياً بجزيرة السراب.

يمكن سماع الصوت الرمادي.

معدن الحديد عسل للرعد.

يمكن العيش مع معجمه الرمزي.

زاوية في الغابة

في طريقي إليها اصطفق جناحان مذعوران، هذا كل شيء. يذهب

الإنسان إلى هناك وحيداً. مبنى عال يتكون بكامله من

شقوق، مبنى يتأرجح دائماً لكنه لا ينهار أبداً.

الشمس المضاعفة آلاف المرات تعوم عبر الشقوق. في لعبة الأضواء

تهيمن جاذبية معكوسة: البيت راسخ في السماء، وما يسقط

يسقط إلى الأعلى. لنا الحق هنالك أن ننقلب. ويُسْمَح هنالك بالحداد.

يجرؤ الإنسان كذلك على مواجهة بعض الحقائق القديمة تلك التي تظل عادة

مستورة. مهماتي في العمق، تصعد إلى السطح هناك، تتدلى

كالجماجم اليابسة في كوخ الأسلاف فوق جزيرة ميلانيزية ضائعة.

شعاع طفولي حول هذه القبور الكريهة. ما أهدأ الغابة.

فانشال (*)

مطعم السمك على الشاطئ، بسيط، كوخ بناه الغرقى.
كثيرون يعودون أدراجهم من الباب، باستثناء هبات الريح الآتية
من المحيط.
ظل يقف داخل غرفته المدخنة ويقلي سمكتين بحسب وصفة
أطلسية قديمة، انفجارات صغيرة من الثوم، والزيت
يسيل على شرائح البندورة. كل لقمة تقول لنا إن المحيط يريد لنا
الخير،
أغنية من الأعماق.
هي وأنا نتبادل النظر. كالتسلق فوق المنحدرات البرية المزهرة
دون الشعور بأقل تعب. نحن من جهة
الحيوانات مرحّب بنا، لا نشيخ. مع ذلك عشنا معاً أشياء كثيرة،
نتذكرها، ونتذكر لحظات لم نكن فيها نساوي شيئاً ذا قيمة
(مثلما كنا نصطف لكي نتبرع بالدم للجبار المعافى ـ كان قد أمر
بنقل الدم)، نتذكر أحداثاً كانت ستفرقنا لو لم توحدنا،

(*) فانشال: عاصمة جزيرة ماديرا.

وأحداثاً نسيناها معاً ـ لكنها لم تنسنا!

تحولت إلى حجارة، معتمة ومشعة. حجارة مبعثرة في فسيفساء. وها هو ما يحدث الآن: تتلاقى الشظايا في الهواء، وتتشكل الفسيفساء من جديد. تنتظرنا. تشع من جدار غرفة الفندق، تخطيطاً مرهفاً وعنيفاً، وجهاً ربما، لا يتسنى لنا أن ندرك كل شيء عندما نتعرّى.

نخرج في المساء. القدم الضخمة الداكنة الزرقة لرأس البحر مقذوفة في المحيط. ندخل في دوامة البشرية ، نتزاحم بأدب، رقابة ناعمة، الجميع يتكلم بحماسة تلك اللغة الغريبة.

No man is an island

نزداد قوة بفضلهم، وكذلك بفضلنا نحن.

بما في داخلنا مما لا يقدر الآخرون أن يروه. بما لا يمكن إلا أن يلتقي بذاته. المفارقة القصوى، زهرة المَرْأب، صمام أمان للعتمة الطيبة.

شراب يفور في أقداح فارغة. مكبر صوت يبث الصمت. ممر يكبر وراء كل خطوة.

كتاب لا تمكن قراءته إلا في العتمة.

الساحة الوحشية

١٩٨٣

I

استراحة قصيرة في حفلة الأرغن

يتوقف الأرغن عن العزف ويخيم في الكنيسة صمت الموتى،
لحظات معدودة لا غير.
تتغلغل آنذاك الدمدمة الخافتة إلى الداخل
من السير في الخارج، الأرغن الأكبر.

ها نحن محاصرون بضجيج السير
حول جدران الكاتدرائية.
هناك ينزلق العالم الخارجي كمثل فيلم شفاف
في ظلال تتصارع برقة عالية.

أسمع نبضي يخفق في الصمت كأنه ينتمي إلى ضجيج الشارع
أسمع دوران دمي ، هذا الشلال الذي يختبىء في داخلي،
ويرافقني دائماً،

وقريباً كدمي وبعيداً كذكرى

في الرابعة من عمري
أسمع القاطرة تمر وترج
جدران الستمئة عام.

هذا كله بعيد كحضن أم،
مع ذلك أنا الآن هذا الطفل
الذي يسمع البالغين من بعيد يتكلّمون، الأصوات المتداخلة
للمنتصرين والخاسرين .

تشغل المقاعد الزرقاء رعيّة مبعثرة.
وتنهض الأعمدة كأشجار غريبة:
بلا جذور (أرض مشتركة لا غير) وبلا تيجان
(سقف مشترك لا غير).

أعيش من جديد حلماً قديماً. أجدني وحيداً
في مقبرة. يتلألأ الخلنج في كل مكان
وعلى مدى النظر. من أنتظر؟ صديقاً. لماذا
لا يأتي؟ لأنه هنا الآن.

بهدوء يقوّي الموت الضوء من الأسفل، من
الأرض. تشع الأرض البور بلون ليلكي يزداد كثافة أكثر فأكثر ـ
كلا بلون لم يره أحد من قبل. . . إلى أن تصفر بين أجفاني
أضواء الصباح الشاحبة

وأستيقظ على هذه الكلمة الثابتة «ربما» التي تنقلني
إلى عالم غير ثابت.
وكل صورة تجريدية عن العالم مستحيلة
كرسم العاصفة.
تشغل موسوعة المعلومات العامة في بيتي، متراً طولياً
في المكتبة، تعلّمت أن أقرأها.

ولكن كل إنسان يكتب موسوعته الخاصة،
وتكبر في كل روح،

إنها تُكْتَبُ بدءاً من الولادة وإلى الأمام، مئات آلاف
الصفحات مضغوطة فوق بعضها بعضاً
لكن الهواء موجود دائماً فيها! كالأوراق
المرتعشة في الغابة. كتاب التناقضات.

يتغير ما كُتِبَ فيها كل لحظة، الصور تنقّح نفسها بنفسها، الكلمات تومض. موجة قعر تتدحرج عبر النص، تتبعها موجة، تتبعها موجة. . .

في آذار ـ ٧٩

متعب من جميع الذين يقدّمون كلمات، كلمات لكن لا لغة،
ذهبت إلى الجزيرة المغمورة بالثلج.
لا كلمات لما لا يُطْبَع.
الصفحات غير المكتوبة تنتشر في جميع الاتجاهات!
أرى آثار أظلاف الأيل في الثلج.
لا كلمات لكن لغة.

الذكريات تراني

في صباح من حزيران، وكان ذلك باكراً
جداً لكي أستيقظ ومتأخراً جداً لكي أعود إلى النوم.

علي أن أخرج إلى الإخضرار المشبع
بالذكريات التي تلاحقني بنظراتها.

لا تُرى، تذوبُ تماماً
في خلفياتها، حرباء نموذجية.

قريبة حتى أنني لأسمعها تتنفس،
مع أن غناء الطيور يصم الآذان.

نظرة الشتاء

أنحني كمثل سلم وأدخل
بوجهي إلى الطابق الأول في شجرة الكرز.
أنا الآن في جرس الألوان الذي تقرعه الشمس.
ألتهم هذا التوت الأحمر الأسود أسرع من أربعة عقاعق.

عندما فجأة ومن بعيد لطمني البرد.
اسودت اللحظة،
ولا تزال كمثل علامة فأس في جذع.

الوقت منذ الآن متأخر. نذهب
راكضين تقريباً
خارج مرمى النظر نزولاً نزولاً في المجاري القديمة.
الأنفاق. نتسكع فيها شهوراً،
نمضي نصفها في الخدمة ونصفها الآخر في الهرب.

صلاة قصيرة عندما يُفتَحُ مِنْوَرٌ فوقنا

وينهمر ضوء خفيف.

ننظر إلى أعلى: سماء تتلألأ فيها النجوم عبر قضبان المجاري.

المحطة

دخل القطار إلى المحطة. يصفُ هنا عرباته واحدة بعد الأخرى،
لكن لا يُفْتَحُ أي باب، ولا أحد يخرج أو يصعد.
أهناك بالفعل أبواب؟ في الداخل ضجيج أناسٍ
محجورين يتحركون ذهاباً وإياباً.
ينظرون إلى الخارج عِبْرَ النوافذ الثابتة.
في الخارج يمشي رجل بمحاذاة القطار حاملاً مطرقة.
يطرق على الإطارات، صوت ضعيف. إلا هنا!
هنا يتضخم الصوت بشكل غير معقول: رعد،
رنين أجراس كاتدرائية، دويٌّ عابرٌ المحيط يرفع القطار كله
والحجارة المبللة في المنطقة.
كل شيء يغنّي. سوف تتذكّرون ذلك. تابعوا سفركم!

II

أجوبة رسائل

أرى في الدرج الأسفل للمكتب رسالة وصلت للمرة الأولى
قبل ست وعشرين سنة. رسالة مذعورة، كانت لا تزال تتنفَّسُ
عندما وصلت
للمرة الثانية.
بيت بخمس نوافذ: بأربع منها يضيء النهار بوضوح وبهجة.
وتواجه الخامسة سماء سوداء تنذر بالرعد والعواصف. أقف عند
النافذة الخامسة. الرسالة.
أحياناً تنشأ هاوية بين الثلاثاء والأربعاء لكن
ستاً وعشرين سنة يمكن أن تمر في لحظة واحدة. ليس الزمن
مسافة بخط مستقيم
لكنه بالأحرى متاه، وإذا استندنا إلى الجدار في المكان الصحيح
فإننا نسمع الخطوات المستعجلة والأصوات، ونسمع
أنفسنا نمرُّ في الجهة الأخرى.

هل حصلت الرسالة على جواب يوماً؟ لقد مرعلى ذلك زمن
طويل.

عتبات المحيط التي لا تُحْصى تابعت سيرها. واستمر
القلب في القفز من ثانية إلى أخرى، كمثل ضفدع
في العشب الرطب لليلة من آب.

الرسائل التي لا أجوبة لها تتكوَّم في الأعلى، كمثل سحاب عال
يُنْذِرُ
بجوٍّ عاصف. يكدِّر أشعة الشمس. سأجيب يوماً.
يوماً عندما أموت وأصبح قادراً على التفكير ملياً. أو
على الأقل بعيداً من هنا لكي أحظى بنفسي. عندما
أدخل زائراً جديداً للمدينة الكبيرة، شارع ١٢٥، في الريح
في شارع النفايات الراقصة. أنا الذي أحبُ كثيراً أن يتشرَّد ويضيعَ
بين الناس، حرف **T**
بداية، في هذه الكمية من النصوص التي لا نهاية لها.

لا هزة أرضية بل زلزال سمائي. كان يمكن لتيرنر أن يرسم ذلك
وهو
مكبل. قفاز وحيد تطاير قربي قبل قليل، على بعد عدة
كيلومترات من
يده. سوف أشق طريقي في الريح المعاكسة حتى ذلك البيت في
الجانب الآخر من الحقل. أتموج في الإعصار. أصَوَّرٌ بأشعة
إكس، الهيكل العظمي
يقدم رسالة استقالته. يزداد الذعر فيما أشقٌ طريقي ، أترنح، أترنح
وأغرق في الأرض الجافة! ما أثقل ذلك، كل ما ينبغي عليَّ فجأةً
أن أجره، ما أثقل على فراشة أن تقطر سفينة!
أخيراً وصلت. صراع أخير مع الباب. والآن
في الداخل. والآن في الداخل. وراء الفتحة الزجاجية الكبيرة.
الزجاج! يا لها من ابتكار عظيم وغريب ـ أن
تكون قريباً جداً دون أن تكون معنياً. . . في الخارج قطيع من
العدائين الشفافين ينطلق بتشكيل كبير

فوق السهل البركاني. لم أعد أتموّج. أجلس وراء الزجاج
دون حراك ، صورتي الخاصة.

أن تسحر ـ لا شيء أسهل من ذلك. إنها واحدة من أقدم حيل
الأرض والربيع: شقائق النعمان. وهي بطريقة ما غير منتظرة.
تنبثق
من الارتعاشات السمراء للسنة الفائتة، في أمكنةٍ مهملة لا
تستوقف النظر أبداً.
تلتهب وتحوم، نعم تحوم، وذلك بفضل لونها.
ذلك اللون البنفسجي الأزرق المتأجّج لم يعد له
أي وزن الآن. فهنا نشوة وإن كانت خافتة. «مهنة» ـ في غير
موضعها!
«سلطة» و «شهرة» ـ مثيرتان للسخرية! أكيد أنهم نظموا حفل
استقبال كبيراً
عالياً في نينوى، بقصف وإفراط في الشرب(*). عالياً ـ تدلَّت ثريات
البلور فوق الرؤوس

(*) بقصف وإفراط في الشرب: إنها جملة مقتبسة من «بيان اريك» في القرن الثاني عشر يشرح خلاله طريقة ممارسة العزف الموسيقي.

كمثل صقور من الزجاج. بدلاً من طريق لا مخرج له، ضاج
وبالغ الزينة،
تفتح شقائق النعمان ممراً سرّياً إلى الحفلة الحقيقية،
لصمتٍ مُطْلَق.

البيت الأزرق

إنها ليلة ذاتُ شَمْسٍ ساطعة. في الغابة الكثيفة أنظرُ في اتجاه
بيتي ذي الجدران الضبابية الزرقاء. كما لو أنني كنت ميتاً منذ
عهد قريب
وأشاهده من منظور جديد.
إنه هنا منذ أكثر من ثمانين صيفاً. خشبه مشبع بالفرح أربع مرات
وبالحزن ثلاث مرات. كلما مات أحد سكانه
يُعاد طلاؤه من جديد. الميت هو نفسه يقوم بالطلاء، من الداخل،
دون فرشاة.
في الجهة الأخرى أرض مفتوحة. سابقاً حديقة، الآن
أرض برية. أمواج متكسرة جامدة من عُشْبٍ بريٍّ، معابد صينية
من عشب بري، نصوص
متدفقة، أوبانيشاد من عشب بري، أسطول فايكينغ، رؤوس
تنانين،
حراب، إمبراطورية من العشب البري.
فوق الحديقة المهجورة يحوم ظل الأسلحة القذفية التي تقذف

أيضاً وأيضاً. مرتبطة بشخص سكن
البيت قبل وقتي بزمن طويل. طفل تقريباً. نزوة تنطلق
منه، فكرة، عزم: «أبدعُ. . . أرسمُ. . . » لكي يستطيع الافلات
من قدره.

يشبه البيت رسم طفل. براءة منتدبة
ظهرت لأن أحدهم تخلّى باكراً عن مهمته في أن يكون طفلاً.
أفتح الباب، وأدخل! هنا يخيّم الاضطراب في السقف
في الجدران السلام. فوق السرير لوحة لهاو معلقة، تمثل
سفينة بسبعة عشر شراعاً، قمم أمواج تنش، وريح لا يمكن
للإطار المذهب أن يكبحها.

الوقت دائماً باكرٌ هنا في الداخل، قبل تقاطع الطرق، قبل
خيارات لا تُرَدُّ. شكراً لهذه الحياة! تنقصني مع ذلك البدائل.
تريد جميع المسودات أن تصبح واقعية.
بعيداً في الماء محرك يمدّد أفق ليل الصيف.
الفرح والحزن يتدفقان معاً تحت عدسة الندى. في الواقع لا
نعرف،
ولكننا نستشعر: هناك سفينة شقيقة حياتنا،
تتبع مساراً آخر. بينما تشتعل الشمس وراء الجزر.

III

عينا قمر اصطناعي

الأرض خشنة، ليست امرأة.
وحدها الأرواح الأكثر خشونة
تعرف أن تتمرأى فيها: القمر
والعصر الجليدي.

تقدم أكثر في ضباب التنين!
غيوم ثقيلة، شوارع مزدحمة.
مطر يصطخب بالأرواح.
ساحات ثكنة.

ألف وتسعمئة وثمانون

تتقدم نظرته قفزاً فوق صفحة الجريدة.

تنبثق المشاعر باردة فَتُحْسَبُ أفكاراً.

في التنويم المغناطيسي وحده، يصبح قرين نفسه ،

شقيقته المخفية، تلك المرأة التي تسير صارخة مع مئات الآلاف

«الموت للشاه!» - مع أنه ميت -

خيمة سوداء تزحف بكراهية كبيرة وتقوى .

الجهاد! اثنان لا يلتقيان أبداً يقبضان على العالم.

I

التقويم ممتلئ، مستقبل مجهول.
يدندن السلك بأغنية شعبية لا وطن لها.
سقوط ثلج فوق بحر هادئ كالرصاص. ظلال
تتصارع على الرصيف.

II

يحدث في منتصف الحياة أن يأتي الموت
ليأخذ مقاس الإنسان. تُنْسَى هذه الزيارة
وتستمر الحياة. لكن بصمتٍ تُخَاْطُ البزة.

تشطيبات نارية

في هذه الأشهر الكئيبة لم تتوهج حياتي
إلا عندما مارست الحب معكِ.
كمثل اليراعة تشتعل وتنطفئ، تشتعل وتنطفئ -
بنظرات خاطفة يمكن رؤية طريقها
يمكننا أن نتبع طريقها بلمحةٍ في عتمة الليل بين أشجار الزيتون.

في هذه الأشهر الكئيبة ظلَّتْ روحي هابطة
لا حياة فيها
فيما كان الجسد يمضي مباشرةً إليك.
كانت السماء تجأر ليلاً.
خلسةً كنا نستدرُ حليبَ الكون لكي نستمرَّ في البقاء.

خطوات عديدة

وضعت الأيقونات في الأرض وجوهها إلى السماء،
كانت الأرض تضغط بعجلات وأحذية، بآلاف الخطوات،
وعشرات الآلاف من خطوات الشكاكين الثقيلة.

في الحلم، هبطت إلى حوض سباحة مشع تحت الأرض،
قداس مائج.
يا للرغبة الهائلة! يا للأمل الغبي!
وفوقي وطء ملايين المتشككين.

بوستلوديوم(*)

أجَرُّ كمثل كلاب على قعر الأرض.

لا يعلق إلا ما لا أحتاج اليه.

سخط متعب، استسلام ملتهب.

يحضر الجلادون الحجارة، الله يكتب على الرمل.

غرف هادئة.

الأثاث جاهز للطيران في ضوء القمر.

أدخل في نفسي بهدوء

عبر غابة من العتاد الأجوف.

IV

ندوة الحلم

أربعة مليارات من البشر على الأرض.
جميعهم نائمون، يحلمون.
في كل حلم تتزاحم الوجوه والأجسام -
الأشخاص الذين نحلم بهم أكثر منّا.
لكن لا يشغلون مكاناً. . .
يحدث أن تغفو في المسرح.
في منتصف المسرحية تنطبق الأجفان.
لحظة قصيرة من عرض مزدوج: المشهد الذي
يفيض عليه الحلم، أمامنا.
لا مشهد بعد ذلك، إنه أنت.
المسرح في الأعماق الصادقة!
سر مدير المسرح، المرهق!
الدراسة الدائمة للمسرحيات الجديدة. . .
غرفة نوم. الليل.

السماء المعتمة تسيل في الغرفة.
الكتاب الذي نام أحدهم فوقه
لا يزال مفتوحاً،
يرتاح مجروحاً على طرفِ السرير.
تتحرّك عينا النائم
تراقبان نصاً بلا أبجديات
في كتاب آخر ـ
منور، قديم، مفاجئ.
كوميديا مدوخة تكتب بين جدران دير الأجفان.
نسخة يتيمة. جاهزة الآن!
وهذا كله سَيُمْحَى غداً.
سر التبذير الضخم!
الإبادة. . . كسائح يوقفه
رجال بلباس موحد مرتابون ـ
يفتحون الكاميرا، يسحبون شريط فيلمه
ويتركون الشمس تقتل الصور:
هكذا يُعْتِم النهار الأحلام.
هل محيت أم أنها غير مرئية؟
هناك أحلام ـ خارج مرمى العين ـ في

حركة مستمرة. ضوء من أجل عيون أخرى.
منطقة تتعلم فيها الأفكار الزاحفة، أن تمشي.
أشباح ووجوه يعاد توزيعها.
نتقدم في شارع، بين الناس
في عز الشمس.
لكن العدد نفسه أو أكثر
ممن لا نراهم
في داخل هذه الأبنية المظلمة
القائمة على طرفي الطريق.
أحياناً، يتقدّم أحدهم إلى النّافذة
لكي يلقي علينا نظرة هناك في الأسفل.

طرس

رجال الهوامش لا العناوين. أنا
في الرواق العميق
الذي ينبغي أن يكون مُظْلماً
لو لم تضئه يدي اليمنى كمصباح كهربائي.
يسقط الضوء فوق شيء كُتِبَ على الجدار،
أراه
كغطاس يتبين اسم السفينة متوهجاً أمامه
في أعماق التيار:
Adam Ileborgh(*) ١٤٤٨
من هذا؟
هو الذي جعل الأرغن يفرد جناحيه المتثاقلين
ويعلو -
مُحَوِّمَاً على مدى دقيقة تقريباً.
يا له من اختبار ناجح!
مكتوب على الجدار:
Myone, Dauthendey, Kaminsky(*)...

(*) Ileborg and Myone : أستاذا عزف أرغن متمرسان Dauthendey: كاتب ألماني توفي سنة ١٩١٨

يسقط الضوء على اسم بعد الآخر.
تغصُّ الجدران بالكتابات.
إنها أسماء فنانين شبه منقرضين،
أناس الهوامش، الذين لم يعزفوا، شبه منسيين،
الخالدين المجهولين.
بدا للحظة أن جميعهم يهمسون
معاً بأسمائهم -
همسات تُضَافُ إلى همسات أمواج متكسِّرة
تندفع في الرواق إلى الأمام
دون أن تسقط أحداً.
لكن هذا لم يعد رواقاً.
وليس مقبرة أو سوقاً ولكنه
مَزيْجٌ من الاثنين.
إنه أيضاً خيمة زراعية.
حيث يتكاثر الأوكسجين.
موتى الهوامش يتنفّسون بعمق، فهم جزء
من نظام الأحياء كما كانوا من قبل.

لكنهم في منأى عن أشياء كثيرة.
في منأى عن أخلاق السلطة،
في منأى عن اللعبة المربعة السوداء ـ البيضاء حيث
رائحة الجثث هي وحدها الباقية.
يُعَادُ لهم الاعتبار.
والذين لم يعودوا قادرين على الأخذ،
لم يتوقفوا عن العطاء.
فرشوا سجادة الرسوم الفاخرة الكئيبة
قليلاً ثم تركوها.
بعضهم مجهولون، إنهم أصدقائي
لكني لا أعرفهم، يُشْبهون أشخاصاً
من الحجر
منقوشين على بلاط القبور في الكنائس العتيقة.
أشكال بارزة على الجدران، نلامسها، بعضها ناعم وبعضها
خشن،
أسماء وأشباح
مغروزة في الأرض الحجرية، على وشك أن تختفي.
ولكن الذين يريدون حقاً أن يشطبوا اللائحة. . .
لا يبقون في منطقة الهوامش،

يدخلون في المهنة التي تقودهم نحو الأسفل
وتكتمل في السلام والنسيان.
النسيان المطلق. إنه نوعٌ من التجربة
يتُمُّ تحصيله بصمت: أن نعبر فوق الحد
دون أن يرانا أحد. . .

أجراس متناغمة

تحتقر السيدة ضيوفها لأنهم يريدون أن يسكنوا في
فندقها الحقير.
أسكن في غرفة الزاوية في الطابق الثاني: سرير رديء،
ومصباح كهربائي في السقف.
ما يثير الفضول الستائر الثقيلة التي يتبختر فيها ربع مليون
عثة غير مرئية.

في الخارج شارع للمشاة:
سُيَّاحٌ يتسكعون، تلامذة مسرعون،
رجال بلباس العمل يدفعون دراجات هوائية مصلصلة.
هؤلاء الذين يعتقدون أنهم يُديرون العالم، وأولئك الذين
يعتقدون أنهم يدورون عاجزين في قبضة العالم.
شارع نمشي فيه جميعاً، لكن إلى أين يقودنا؟

النافذة الوحيدة في الغرفة تُطلُّ على شيءٍ آخر:
الساحة الوحشية،

أرض تختمرُ، مساحة ضخمة مرتعشة، أحياناً تسود بازدحام الناس
وأحياناً مهجورة.
ما أحمله في داخلي يتجسَّد هناك، حسرتي كلها،
وآمالي كلها.
جميع الأشياء غير المتوقعة ومع ذلك تقع.

شطآني منخفضة، لو ارتفع الموت عشرين سنتيمتراً
لغرقتُ.

أنا ماكسيميليان(*). السنة ١٤٨٨. مسجون هنا في بروغ
لأن أعدائي مترددون ـ
مثاليون أشرار، ولا أقدر أن أصف ما ارتكبوه في ساحة الرعب
الخلفية، لا أقدر أن أحوِّلَ الدمَ
إلى حبر.

أنا كذلك الرجل الذي يرتدي لباس العمل، ذلك الذي يجر
دراجته الهوائية
المصلصلة هناك في الأسفل في الشارع.

(*) ماكسيميليان: يُعرَف الآن بالقيصر ماكسيميليان الأول، سجن سنة ١٤٨٨ في بروغ وتم إعدام كل مناصريه.

أنا كذلك من يرى، السائح الذي يسير ثم
يتوقّف، يسير ثم يتوقّف
تاركاً نظره يسرح فوق الأوجه الشاحبة، المحترقة بأشعة القمر
وتنافس اللوحات العتيقة.

لا أحد يقرر أين أذهب، حتى أنا نفسي،
لكن كل خطوة تتم حيث ينبغي.
أتنزّه في الحروب المتحجّرة حيث للجميع مناعة الموت!

أكداسُ أوراق غبراء، أسوار بكوى للرمي،
ممرات حدائق تنسحق فيها تحت الأعقاب، دموع متحجرة.

بدأت الأجراس الرنين في البرج الذي لا اسم له، دون انتظار،
كما لو أنني تعثّرت بحبل مصيدة.
الأجراس المتناغمة! تنفجر الجعبة وتتدحرج
الأنغام فوق الفلاندر.
الأجراس المتناغمة! هديل الأجراس الحديدية، تراتيل وأغان
شعبية،
كلها في واحد، تنكتب مرتجفة في الهواء.

الطبيب بيديه المرتعشتين يكتب وصفة لا يقدر أحدٌ أن يقرأها،
لكن كتابته معروفة. . .

على السطوح والساحات، على العشب والقمح
للموتى وللأحياءِ تُدَقُّ الأجراس المتناغمة.
من الصعب التمييز بين المسيحي واللا مسيحي!
في نهاية المطاف تحملنا الأجراس على أجنحتها وتطير بنا إلى
البيت.

صمتت.

عدتُ إلى غرفتي في الفندق: السرير، المصباح،
الستائر. تُسْمَعُ أصواتٌ غريبة هنا، القبو
يصعد بطيئاً على السلم.

ممدد على السرير، ذراعاي مفتوحتان.
أنا مرساة مغروزة بثبات في الأرض،
تمسك الظل الكبير فوقها،
الظل الضخم المجهول. أنا جزء منه، وهو

على الأرجح أكثر أهمية مني.

في الخارج يمتد شارع المشاة، الشارع الذي تموت فيه
خطواتي ويموت ما أكتبه، مقدمتي
للصمت، مزموري المقلوب.

مولوكاي(*)

نقف على الحافة، تتلألأ من تحتنا في الفراغ سقوف
محجر الجذام.
يمكننا النزول، لكن لا يمكننا
تسلق المنحدرات قبل الليل.
هكذا نعود أدراجنا عبر الغابة، نمشي
بين أشجار بأوراق إبرية طويلة وزرقاء.
هنا يخيّم الصمت، صمتٌ كما لو أن الصقر آت.
إنها غابةٌ تسامحُ كلَّ شيءٍ، لكنّها لا تَنْسى أيَّ شيء.
حُبّاً، اختار داميان، الحياة والنسيان. منح
المجدَ والموت.
لكنّنا نرى هذه الأحداث من الزاوية الخاطئة: كومة
حجارة بدلاً من وجه أبي الهول.

(*) مولوكاي: إحدى جزر هاواي. مشهورة بمستعمرة ليرا حيث عاش الأب داميان ومات قبل مئة عام.

من أجل الأحياء والموتى

١٩٨٩

القبطان المنسي

عندنا ظلال كثيرة. كنت عائداً إلى بيتي، في ليل أيلول
عندما خرج السيد
Y
من قبره بعد أربعين عاماً،
ورافقني.

كان في البداية فراغاً، اسماً لا غير
لكن أفكاره كانت تسبح
أسرع من مرور الوقت، ثم
جاءت وانضمت إلينا.

وضعتُ عينيه على عيني
وشاهدتُ محيطَ الحرب.
السفينة الأخيرة التي قادها
أخذت تكبر تحت أقدامنا.

أمام سفن الأسطول الأطلسي ووراءها كانت تزحف
تلك الناجية
وتلك التي دُمِغَتْ
(لا يرى الدمغةَ أحدٌ)

فيما كانت تتعاقب أيّام بلا نوم،
دون أن تبارحه أبداً ـ
كانت سترة النجاة تحت الغطاء المشمع.
لم يعد أبداً إلى البيت.

نحيب داخلي جعله ينزف
في مستشفى في كارديف.
أخيراً تمكّن من التمدد
وتحول إلى أفق.

وداعاً يا أساطيل الإحدى عشرة عقدة! وداعاً ١٩٤٠!
هنا ينتهي تاريخ العالم.
بقيت القاذفات محلقة.
أزهر خلنج الأرض البائرة.

صورة فوتوغرافية من مطلع القرن لشاطئ
يقف عليه ستة أولاد بلباس الأحد.
في حضن كل منهم مركب شراعي.
يا لسمائهم الرصينة!

سفن، حياة لبعضهم وموت.
والكتابة عن الموتى هي كذلك
لعبة، يثقلها
ما سيحدث.

ستة شتاءات

I

طفلٌ ينامُ في الفندق المعتم.

وفي الخارج: ليل الشتاء

يتدحرج فيه نرد الأعين الجاحظة.

II

نُخْبَةٌ من الموتى تحجّروا

في مقبرة كاتارينا

حيث ترتعش الريح في عتادها السفالباردي.

III

في شتاء الحرب عندما كنتُ مريضاً

كانت قطعة جليد ضخمة تتمدّد أمام النافذة.

جار ورمح لصيد الحيتان، ذاكرة بلا تفسير.

IV

يتدلّى الجليد من طرفِ السقف.

قطع جليدية: القوطي مقلوب.

مواش تجريدية، أثداء من زجاج.

V

عرَبةُ قطارٍ فارغة على طريق مرِآب.

ثابتة. مرحبة.

رحلات في براثنها.

VI

هذا المساء ستار ثلجي، ضوء قمر. قنديل البحر القمري

يطوف أمامنا. ابتساماتنا

في طريقها إلى البيت. شارع مسحور.

العندليب في باديلوندا

في المنتصف الأخضر لليلة قرب حدود العندليب الشمالية. أوراق
شجر ثقيلة
تتدلى بنشوة، السيارات تسرع صماء نحو خط النيون. لا يتنحّى
صوت
العندليب جانباً، إنه نفّاذ كمثل صياح الديك،
لكنه ممتعٌ ولا غرورَ فيه. كنتُ في السجن
وزارني. كنتُ مريضاً وزارني. لم أنتبه له آنذاك،
الآن أنتبه. يتدفّق الوقت من الشمس والقمر إلى داخل الدقات
في ساعات الشكر.
لكن لم يعد للزمن وجود هنا. وحده
صوت العندليب، هذه الأنغام ذات الرنين الساطع الذي يسن
المنجل المضيء لسماء الليل.

رباعيات أول أيار

غابةٌ في أيار. هنا حياتي كلها تتطيَّف:
حمل شاحنة غير مرئي. غناء عصفور.
في برك صامتة، علامات استفهام من يرقانات بعوضية ترقص
بغضب.

أهرب إلى الأمكنة نفسها الكلمات نفسها.
هواء بارد من البحر، تنين الجليد يلعق
رقبتي، فيما ترسل الشمس لهيبها.
يحترق حمل الشاحنة بألسنة نارٍ متأججة.

تهويدة

أنا مومياء ينام في تابوت الغابات الأزرق، في هدير
المحرك الدائم والمطاط والإسفلت.

ما حدث اليوم يتلاشى، الدروس أثقل من الحياة.

مشت العربة بدولابٍ واحد، وانتقلت أنا
في خذروف عقلي، لكن توقفت الآن جميع الأفكار
عن الدوران ونبتت للعربة أجنحة.

بعد زمانٍ طويلٍ، عندما تسود السماء، تأتي طائرة. سيشاهد
ركابها تحتهم مدناً تتلألأ كذهبِ القوطيين.

شوارع في شانغهاي

I

كثيرون في الحديقة يقرؤون الفراشة البيضاء.
أحبُ هذه الفراشة كما لو أنها ترفرف كزاوية للحقيقة!

في الصباح، تفجر الكتل البشرية الحياة في كوكبنا الصامت.
آنذاك تمتلئ الحديقة بالناس. لكل منهم ثمانية أوجه
مصقولة كوجه حجر اليشب، لجميع الظروف تجنباً
للخطأ.
ولكل منهم أيضاً الوجه اللامرئي الذي يعكس «شيئاً
لا نتكلم عنه».
شيئاً يأتي في لحظات التعب، لاذعاً كجرعة
براندي الأفعى بطعم حرشفي يستمر طويلاً.

أسماك الشبّوط في بركة السد، تتحرّك باستمرار، تسبح وهي
نائمة،
إنها مثل أعلى للمؤمن: دائماً في حركة.

II

إنه منتصف النهار. يتموّج الغسيل في ريح البحر
الرمادية عالياً فوق الدرّاجين
الآتين أفواجاً متلاصقة. لاحظوا المتاهات الجانبية!
تحيط بي حروف كتابة لا أعرف أن أقرأها، أنا
أميٌّ تماماً.
لكنني دفعتُ ما توجَّبَ عليَّ ومعي إيصال بذلك.
جمعت كثيراً من الإيصالات التي لا تمكن قراءتها.
أنا شجرة عتيقة، لا تزال أوراقها الذابلة تتدلى
لا تستطيع السقوط على الأرض.

نفحة من المحيط تجعل الإيصالات تصطخب.

III

في الصباح، ينطلق كوكبنا الصامت في خطوات الكتل البشرية.
كلنا نركب الشارع، نزدحم كأننا على
متن عبارة.
أين نمضي؟ هل تكفي أكواب الشاي؟ يجب أن نُعدَّ أنفسنا سعداء
لأننا تمكنّا من ركوب هذا الشارع!

ألف عام قبل ظهور رهاب الانغلاق.

خَلْفَ كل منا يحوم صليب، يريد أن يلحق بنا،
أن يسبقنا، أن يتّحد معنا.
شيء يريد أن يتسلل خلفنا ويغطي أعيننا بيديه
ويهمس «احزر من هذا!»

نبدو أننا سعداء في الشمس، فيما ننزف بسبب
جراح نجهلها.

في قلب أوروبا

أنا صدر سفينة قاتم أعوم بين بابي هويس القناة،
أرتاح في سرير الفندق بينما تستيقظ المدينة من حولي.
صخب صامت، وضوء رمادي يتدفقان إلى الداخل
ويرفعانني بهدوء إلى المرتبة التالية: الصباح.

أفق على منصة التنصت. يريد الموتى أن يقولوا شيئاً.
يدخّنون لكنهم لا يأكلون، لا يتنفسون لكنهم لا يزالون يحتفظون بأصواتهم.
سوف أركض في الشوارع كواحدٍ منهم.
الكاتدرائية المسودة، ثقيلة كقمر، تمد وتجزر.

مناشير

الغضب الصامت يخربش على الجدار.
أشجار مثمرة تُزْهر، الوقواق يصيح.
إنه خدرُ الربيع. لكن الغضب الصامت
يرسم شعاراته عكسياً في المرآب.

نرى كلَّ شيء ولا شيء، لكننا مستقيمون كمنظار الأفق
يقودنا ملاحو الأرض السفلى الخجولون.
إنها حرب الدقائق. الشمس الساطعة
تهيمن على المستشفى، مرآب العذاب.

نحن المسامير الحية مغروزة في المجتمع!
سنفلت يوماً من كلٍّ شيء.
سنشعر برياح الموت تحت أجنحتنا
ونصبح أكثر عذوبة وجنوناً منّا اليوم.

الداخل لا نهائي

كان ذلك في ربيع ١٨٢٧ . يرفع
بتهوفن قناع الموت ويبحر.

طواحين أوروبا تدور.
الإوز البري يحلّق شمالاً.

هنا الشمال، هنا استوكهولم
قصور عائمة وأكواخ.

حطب النار الملكية
تتدهور من تهيأ إلى استرح.

إنه عصر السلام واللقاح والبطاطس
لكن آبار المدينة، تتنفس بصعوبة.

مراحيض برميلية في محفة كالباشوات
تعبر ليلاً على الجسر الشمالي.

على البلاط يتعثر،
متسكعون أسياد آنسات.

شعار الموركسي المدخن، يحتفظ بصمته عنيداً

الجزر عديدة، وعديدون هم المجدّفون
بحركاتهم اللامرئية ضد التيار.

تفتح قنوات البحر، نيسان، أيار
وحزيران الجميل الذي يقطر عسلاً.

تصل الحرارة إلى الجزر الأكثر بُعْداً.
أبواب القرية كلها مشرعة، باستثناء باب واحد.

عقرب الساعة الحلزونية يلعق الصمت.
البلاط يشع بصبر الجيولوجيا.

هذا ما حدثَ، أو تقريباً.
إنها قصة عائلية قاتمة

عن إريك المحطم برصاصة سحرية،
المشلول برصاصة في عمق الروح.

مضى إلى المدينة، قابل العدو
ثم عاد مريضاً وشاحباً.

سيبقى في سرير المرض هذا الصيف.
الأدوات على الجدران تنتحب.

يبقى مستيقظاً، يسمع في الليل رفرفةً
كأنها الصوف، للفراشات، صديقات ضوء القمر.

تخور قواه ، يلتطم دون فائدة
بنهار الغد المطوّقِ بالحديد.

وإله الأعماق ينادي منها

«حرِّرْني! حرِّرْ نفسك!»

جميع الأفعال السطحية تنكفئ إلى الداخل.
يُفَكَّكُ، ثم يُعَادُ تجميعه.

الهواء يُرَطِّبُ وشجيرات النسرين
تتمسَّكُ بالضوء الهارب.
يَتَكَشَّفُ المستقبل، ينظرُ في
المشكال الذي يدور على ذاته

يرى وجوهاً غير واضحةٍ ترفرفُ
تنتمي إلى أجيال مقبلة.

تصطدم بي نظرته خطأ
فيما أتمشى، تحديداً هنا

في واشنطن بين البيوت الهائلة
حيث لا يثبت إلا عمود من اثنين.

مبان بيضاء بأسلوب محارق الموتى
حيث تتحوَّلُ أحلام الفقراء رماداً.

المنحدر العذب يبدأ بالهبوط
ويتحوَّل بلا شعور إلى هاوية.

فيرمير(*)

ليس هناك عالم مصون . . . خلف الحائط مباشرة يبدأ
الضجيج،
تبدأ الحانة،
ضحك، مخاصمات، صفوف أسنان، دموع، رنين ساعات
الجدران
والصهر المرتبك، رسول الموت الذي يرتجف منه الجميع.

الانفجار الكبير وخطوات الانقاذ المتأخرة
البواخر التي تتبختر في المرسى، المال الذي ينزلق
في جيب الرجل النذل
الإكراهات التي تنضاف إلى الإكراهات
أكمام الزهور الحمراء المفتوحة التي يرشح منها حدس الحرب.

من هناك وعبر الحائط إلى داخل الإتيليه الجاهز

(*) جان فان ديلفت فيرمير.١٦٣٢ـ ١٦٧٥، رسام هولندي ذائع الصيت.

في قلب الثانية المسموح لها أن تبقى حية مئات السنين.
لوحات تسمى«درس الموسيقى»
أو «امرأة بالأزرق تقرأ رسالة» -
هي في الشهر الثامن، قلبان يخفقان داخلها.
على الحائط، في الخلف تتدلّى خارطة متجعدة فوق
الأرض التي لم تُكْتَشَف بعد
تنفس على مهل. . . مادة زرقاء مجهولة ثُبِّتَتْ بالكراسي.
طارت الأزرار الذهبية بسرعة خارقة
وتوقفت فجأة
كما لو أنها لم تكن أبداً إلا جموداً.

ثمة ما يطنُّ في الأذن، إما بسبب العمق أو بسبب العلو.
إنه الضغط من الجهة الأخرى للحائط.
يدفع كل حقيقة إلى التمايل
يجعل الريشة ثابتة.

مؤلمٌ هو المشي عِبْرَ الحيطان، يمرض الإنسان بسببها،
ولكن هذا ضروري.
العالم واحد. ولكن حيطان. . .

والحائط جزء منك ـ

تعلم أو لا تعلم ولكن هذا واقع بالنسبة للجميع

باستثناء الأطفال الصغار. بالنسبة لهم لا يوجد أيُّ حائط.

اتكأت السماء الصافية على الحائط.

ذلك كالصلاة للفراغ.

والفراغ يدير وجهه نحونا

ويهمس

«أنا لست فارغاً، أنا مفتوح».

أقواس رومانية

في داخل الكنيسة الرومانية الضخمة نصف المعتمة، ازدحم السياح.
قنطرة تتثاءب خلف قنطرة وليس هناك رؤية كاملة.
بضع ومضات ضوء رفرفت.
ملاك بلا وجه ضمّني إلى حضنه
وهمس في كل جسدي:
«لا تخجل لأنك إنسان، كُنْ فخوراً!
في داخلك تنفتح قنطرة خلف قنطرة بلا نهاية.
لن تصبح جاهزاً أبداً، هذا ما هو مقرر».
أعمتني الدموع
واقتدت إلى الميدان الحامي
مع السيد والسيدة جونس، السيد تاناكا
وسينيورا ساباتيني
وفي داخلهم جميعاً انفتحت قنطرة خلف قنطرة بلا نهاية.

هجائية

مباني رأس المال، قفير النحل القاتل، عسل للأقلية.
كان يخدم هناك. لكن في النفق المظلم أفرد جناحيه
وطار عندما لم يكن يراه أحد. يجب أن يعيش حياته ثانية.

بورتريه نسائية ـــ ١٨٠٠

الصوت يختنق في الفستان. عيناها تلاحقان
المصارع. ثم تقف بنفسها في الميدان.
هل هي حرة؟ إطار ذهبي
يشنق اللوحة.

أشكال قروسطية

تحت تعبيراتنا الساحرة، دائماً تنتظر
الجمجمة، وجه غير معبِّر. بينما
تتدحرج الشمس ببطء في السماء، لعبة
الشطرنج مستمرة.

صوت مقص حلاق من الأيكة.
تتدحرج الشمس ببطء في السماء.
مباراة الشطرنج تتوقف بتعادل. في
صمت قوس قزح.

بريد جوي

حَمَلْتُ الرسالةَ عبْرَ المدينة
باحثاً عن صندوق بريد.
في الغابة الكبيرة من الحجر والإسمنت
رفرفت هذه الفراشة التائهة.

سجادة الطابع البريدي الطائرة
أحرف العنوان المتمايلة
إضافة إلى حقيقتي المختومة
تحلق الآن فوق البحر.

فضية الأطلنطي الزاحفة.
مصارف الغيوم. قارب الصيد
كمثل نواة الزيتون المبصوقة.
جراح أثر السفن الشاحبة.

هنا في الأسفل يمشي العمل بهدوء.
غالباً ما أرمق الساعة.
ظلال الشجر أرقام سوداء
في هذا الصمت الجشع.

الحقيقة موجودة على الأرض
لكن لا أحد يجرؤ على التقاطها.
الحقيقة ممدّدة في الشارع.
لا أحد يلتقطها.

مادريجال(*)

ورثتُ غابةً معتمةً نادراً ما أذهب إليها. لكن يأتي يوم
سيتبادل فيه الموتى والأحياء أماكنهم. وقتذاك تبدأ الغابة
بالحركة.

لسنا بدون أمل. أصعب حالات الإجرام تبقى بلا حل رغم
جهد عدد كبير من رجال الشرطة. بالطريقة نفسها يوجد حب
كبير بلا حل في مكان ما داخل حياتنا.

ورثتْ غابةً معتمة لكني أذهب اليوم إلى غابة أخرى،
الغابة المنيرة. كل شيء حي يغني، يتلوّى، يلوح،
ويزحف! إنه الربيع والهواء شديد القوة. أحمل شهادة من
جامعة النسيان، ويداي خاليتان كمثلِ قميصٍ على الحبل.

(*) غزلية

الدبور الذهبي

العظاية العمياء، سحلية بلا أرجل تنساب
بمحاذاة درج الرواق
هادئة ملوكية كمثل الأناكندة، ما يميزهما الحجم وحده.
تغص السماء بالغيوم لكن الشمس تخترقها.
هكذا هو النهار.

طردتْ حبيبتي في الصباح الباكر الأرواح الشريرة.
كما عندما يُفْتَحُ بابُ سقيفةٍ معتمة في الجنوب
فيتدفق النور إلى الداخل
وتسرع الصراصير هاربةً إلى الزوايا وعلى الجدران،
فيختفون ـ سواء رأيتهم أم لم ترهم ـ
هكذا تمكَّن عريها من دفع الأرواح الشريرة إلى الهرب.

كأنها لم تكن موجودة من قبل.
ولكنها ستعود.
بألف يد تشبك خطأ أعصاب مقسم الهاتف

القديم.

إنه الخامس من تموز. نباتات الترمس تتمدَّد كأنها تريد
مشاهدة البحر.
نحن في كنيسة الصمت، في طاعة دون أحرف.
كما لو أن أوجه البطاركة التي لا تعرف الصفح لم تكن موجودة
والكتابة الخاطئة لاسم الله على الصخر.

شاهدت واعظاً تلفزيونياً ملتزماً تمكَّن من جمع
مبالغ كبيرة.
لكنه كان ضعيفاً وبحاجة إلى دعم حرس شخصي،
شاب في مقتبل العمر أنيق وبضحكة مكتومة كأنها تخرج
من كمامة.
ابتسامة خنقت صرخة.
صرخة طفل يُتْرَكُ وحيداً في سرير المستشفى
عندما يذهب أهله.

الألوهية تلامس إنساناً وتوقظ
لهباً لكنه يعود وينسحب.

لماذا؟

يجذب اللهب الظلال، تطير مفرقعة
وتتّحدُ مع اللهب
الذي يعلو ثم يسود. ويتسع الدخان سواداً واختناقاً.
في النهاية فقط الدخان الأسود، فقط
الجلاد التقي.

ينحني الجلاد التقي فوق
الساحة وحشد الناس الذين يشكلون مرآة مجزعة
يمكنه مشاهدة نفسه فيها.

المتزمت الأكبر هو أكثر المشككين.
لا يعرف ذلك.
إنه حلف بين اثنين
حيث الأول يكون ظاهراً مئة في المئة والثاني
غير مرئي.
كم أكره مصطلح «مئة في المئة»!
هم الذين لا يمكنهم أن يوجدوا إلا في المقدمة
هم الذين لا يشرد ذهنهم أبداً
هم الذين لا يفتحون أبداً باباً خطأً، فيرمقون

المجهول -
تجاوزهم!

إنه الخامس من تموز. تغصُّ السماء بالغيوم لكن الشمس تخترقها.
العظاية العمياء، تنساب بمحاذاة درج الرواق
هادئة ملوكية كمثل الأناكندة.
عظاية عمياء كأنما لا يوجد إدارات رسمية.
دبور ذهبي كأنما لا يوجد عبادة الشخص.
نباتات الترمس كأنما لا يوجد «مئة في المئة».
أعرف العمق حيث يكون الإنسان سجيناً وحاكماً، كمثل بيرسيفون(*)
غالبا ما كنت أتمدّد على العشب الجامد في الأسفل
وشاهدت الأرض تتقوَّس فوقي.
سماء (أو دورة، عقدة، قنطرة) الأرض.
غالباً، كانت نصف الحياة.
لكن غادرتني نظرتي اليوم.
وهاجر عمائي.
ترك الخفاش الداكن، الوجه
وطار في فضاء الصيف المنير.

(*) Persephone : ملكة العالم السفلي في الميثولوجيا اليونانية.

جندول الحزن

١٩٩٦

نيسان وصمت

يستلقي الربيع مهجوراً.
الخندق المخملي المظلم
يزحف بجانبي
دون انعكاسات.

وحدها الورود الصفراء مضاءة.

أحْمَلُ في ظلي
كمثل كمانٍ
في صندوقه الأسود.

ما أريد قوله
يتألّقُ خارج متناول اليد
كمثلِ الفضة
عند الراهن.

بلاد غير مستقرة

تنحني مديرة المكتب إلى الأمام وترسم إشارة
فتتدلّى أقراطها
كمثلِ سيفِ ديموقليس.

كمثلِ فراشة مزركشة تختفي فوق الأرض،
تندمج الأرواح الشريرة مع الصحيفة المشرعة.

خوذة لا يحملها أحد سيطرتْ على السلطة.
السلحفاة الأم تهرُب طائرةً تحت الماء.

أوراق كتاب الليل

وصلت اليابسة في ليلة من أيار
تحت ضوء قمري بارد
حيث كان الشحوب يلبس العشب والورد
لكن كان العطر أخضر.

انزلقت فوق المنحدر
في ليلة عمياء اللون
بينما الحجارة البيضاء
كانت ترسل إشاراتها إلى القمر.

مرحلة زمنية
طولها بضع دقائق
عرضها ثماني وخمسون سنة.

ورائي
خلف مياه تلمع كالرصاص

كان يوجد الساحل الثاني

والذين كانوا يحكمون.

بشر بمستقبل

بدلاً من الوجوه.

جندول الحزن رقم ٢ (*)

I

عجوزان، حمو وصهر، ليزت وفاغنر،
يقيمان بالقرب من قناة غراند
سوياً مع المرأة المتململة المتزوجة من
الملك ميداس
هو الذي يحول كل شيء يلمسه إلى فاغنر.
برد البحر، الأخضر يتغلغل من خلال الأرضيات في القصر.
فاغنر ذو سمة، شكل المهرج الشهير
أكثر تعباً من ذي قبل،
الوجه راية بيضاء.
الجندولُ مُثْقَلٌ بحمل الحياة، برحلتين ذهاباً وإياباً
ورحلة باتجاه واحد.

II

نافذة في القصر تنفتح فتهب ريح مفاجئة تجعلهم يكشرون.

(*) في نهاية عام ١٨٨٢ ومطلع عام ١٨٨٣، قام ليزت بزيارة ابنته كوسيما وزوجها ريتشارد فاغنر في البندقية. مات فاغنر بعد أشهر من ذلك. خلال ذلك الوقت كتب ليزت مقطوعتي بيانو نُشرتا باسم «جندول الحزن».

في الخارج على سطح الماء يظهر جندول النفايات يقوده
شقيان بمجذاف واحد.
ألّف ليزت بعض الأنغام التي من ثقلها يفترض
أن تُرْسَل
إلى معهد لعلم المعادن في بادوفا لتحليلها.
نيازك!
أثقل من أن ترتاح، لا يمكنها سوى الغرق والغرق عبر
المستقبل إلى عمق
سنين أصحاب القمصان البنية.
الجندول مثقل بحمولة حجارة المستقبل الجاثمة.

III

منافذ باتجاه ١٩٩٠

٢٥ آذار. قلق من أجل ليتوانيا.
حلمت أني زرت مستشفى كبيرة.
خاليةً من الموظفين. الكلّ مرضى
في الحلم نفسه طفلة حديثة الولادة
كانت تنطق جملاً سليمة.

IV

بجانب الصهر الذي هو رجل العصر، كان ليزت
نبيلاً مهترئاً
إنه تمويه.
العمق الذي يجرّب وينبذ أقنعة مختلفة أختار
له هذا تحديداً ـ
العمق الذي يريد الدخول في البشر دون أن يُظْهِرَ
وجهه.

V

Abbé Liszt

معتاد على حمل حقيبته بنفسه عبر الثلج المطري
وحرارة الشمس
وعندما في يوم ما سيموت لن يكون هناك أحد لاستقباله
في المحطة.
نسيم دافئ لكونياك النخبة، يحمله بعيداً
إلى وسط إحدى المهمات.
عنده مهمات دائمة.
ألفا رسالة في السنة!
تلميذ المدرسة الذي يعيد كتابة الكلمة الخاطئة مئة مرة
قبل أن يُسْمَح له بالانصراف إلى البيت.

الجندول مُثْقَلٌ بحمولة الحياة، إنه متواضع وأسود.

VI

عودة إلى ١٩٩٠

حلمت أني قدتُ السيارة ٢٠٠ كيلومتر عبثاً.
كبر وتقذك كل شيء. طيور دوري كبيرة كالدجاج
أنشدتْ حتى صمّت الآذان.

حلمت أني رسمت مفاتيح البيانو
على طاولة المطبخ. عزفتُ عليها، عزفاً أخرس.
الجيران أتوا للاستماع.

VII

لوحة المفاتيح التي كانت صامتة عبر كل بارسيفال (ولكنها كانت تصغي)
يمكنها أخيراً قول شيء.
تنهدات. . .
sospiri...

عندما يعزف ليزت هذا المساء يبقي دواسة البحر مضغوطة
فتصعد قوة البحر الخضراء عبر الأرضية وتندمج مع
حجارة المبنى كلها.
مساء الخير أيها العمق الجميل!
الجندول مثقل بحمل الحياة، إنه بسيط وأسود.

VIII

حلمتُ أني سأبدأ في المدرسة لكن وصلت متأخراً.
كل الذين في الغرفة وضعوا أقنعةً بيضاء على أوجههم.
لم يكن مستحيلاً معرفة الأستاذ بينهم.

طبيعة بأكثر من شمس

تنزلق الشمس خلف جدار البيت
وتقف في منتصف الطريق
وتنفخ علينا
بريحها الحمراء.
اينسبروك(*)
يجب أن أغادرك.
لكن غداً
ستقف شمس ساطعةٌ
فوق الغابة الشاحبة شبه الميتة،
هناك سنعمل ونعيش.

تشرين الثاني في ألمانيا الديمقراطية السابقة

غاص السكلوب الجبار في الغيم
العشب نفض عن نفسه رجيع الفحم الحجري.

مرهقين من أحلام الليل
نصعد في القطار
الذي يتوقف في كل محطة
ويبيض.

صمت نسبي.
رنين لدلاء أجراس الكنيسة
التي جلبت الماء.
وسعال بلا رحمة لشخص،
يصرخ على الجميع وعلى كل شيء.

صنم يحرّكُ شفتيه:
إنها المدينة.
هناك تسود التباسات صلبة بين

عمال الأكشاك والجزارين
والحدادين وضباط البحرية،
التباسات صلبة، أكاديميون.

تؤلمني عيناي!
قرأت تحت ضوء سراج الليل الخافت.

يقدم تشرين الثاني حلوى صوانية.
لم يكن في الحسبان.
كتاريخ العالم
يضحك في المكان غير الصحيح.

ولكننا نسمع الرنين من
دلاء أجراس الكنيسة
وهي تجلب الماء
كل أربعاء
هل هذا يوم الأربعاء؟ -
هذا عقاب على آحادنا.

٩٠ من تموز

كانت جنازة
فشعرت
أن الميت
قرأ أفكاري
أفضل مني.

صمت الأرغن، أنشدت الطيور.
حفرة القبر تحت الشمس.
بقي صوت صديقي
في بطانة الدقائق.

عدت في سيارتي إلى البيت يغمرني
توهج هذا النهار الصيفي
من المطر والهدوء
مغموراً بالقمر.

الوقواق

جلس وقواق في البتولا إلى شمال البيت ينعب. كان عالي
الصوت
فاعتقدتُ في بادئ الأمر أنه كان مغني أوبرا
يقلّد صوت الوقواق. نظرتُ إلى الطير بتعجّب. كان ذيل الريش
يتحرك إلى الأعلى وإلى الأسفل مع كل نغمة يطلقها، كمثل
مقبض المضخة.
كان الطير يقفز برجلين متوازيتين، ويتلفت في الاتجاهات كلها
ويصرخ. ثم ارتفع
وحلّقَ مُغَمْغماً فوق البيت وبعيداً باتجاه الغرب. . .
يشيخ الصيف وكل شيء يندمج في حفيف محزن.
Cuculus canorus
يعود إلى المدار الاستوائي. وقته في السويد قد انتهى.
لم يدم طويلاً! فالوقواق في الواقع مواطن في زائير. . .
لست مغرماً بعد الآن بالسفر. ولكن السفر يزورني. الآن
بينما أحْشَر أكثر فأكثر بزاوية، بينما دوائر السنوات تكبر، بينما
أصبحت بحاجة للنظارات. تحصل دائماً أمور تتجاوز مقدرتنا!

لا يوجد شيء يثير الاستغراب. هذه الأفكار تحملني بأمان مثلما حملتْ
سوسي وشوما مومياء ليفينغستون عِبْرَ أفريقيا.

ثلاثة مقاطع شعرية

I

الفارس وامرأته
متحجران ولكنهما فرحان
على غطاء تابوت طائر
إلى خارج الزمن.

II

رفع المسيح قطعة نقود
عليها وجه تيبريوس
وجه مجرد من الحب
السلطة في دوران.

III

سيف يتقطر
يبيد الذكريات.
في الأرض يصدأ
بوقٌ ولحد.

كما لو كنت طفلاً

كما كنت طفلاً وتسقط إهانة كبيرة
فوق رأسك كالكيس،
ومن خلال درزاته تومض الشمس
وتسمع شجرة الكرز تهمهم.

ولكن دون نفع، إذ الإهانة الكبيرة
تغطي رأسك وجذعك وركبتيك
وتتحرك بتقطّع
دون أن تفرح بقدوم الربيع.

أنْزلْ قبعة الصوف الواهنة فوق وجهك،
وَحدِّقْ من بين خيطانها.
في المضيق، تزدحم دوائر الماء بصمت.
أوراق خضراء تُعْتِمُ الأرض.

مدينتان

على كل جهة من ضفتي المضيق، مدينتان
الأولى مُظْلمَة، ومحتلة من قبل العدو.
في الثانية تشتعل المصابيح.
الضفة المضيئة تُنَوِّمُ الضفة المظلمة مغناطيسياً.

أسبح إلى الخارج بنشوة،
في المياه المظلمة المتلألئة.
صفرة بوق أصم تخترق داخلاً.
إنه صوت صديق، احمل قبرك وامش.

الضوء يتدفق إلى الداخل

خارج النافذة حيوان الربيع الطويل
التنين يشف تحت أشعة الشمس
ينساب كقطار ضواح بلا نهاية
- لم نتمكن أبداً من رؤية الرأس.

تتحرك بيوت الشاطئ
إنها فخورة كمثل السرطانات
تطرف أعين الأصنام من نور الشمس.

بحر النار الغاضب في الفضاء
يتحول إلى ملاطفة.
لقد بدأ العد العكسي.

رحيل ايلي

تحتنا ضجيج. القطارات تمضي.
فندق استوريا يرتج.
كوب ماء على طرف السرير
يضيء في الأنفاق.

كان يحلم أنه سجين في سفالبارد[*].
يدور الكوكب هادراً.
كانت العيون البرّاقة تمشي فوق الجليد.
روعة المعجزات كانت هناك.

هايكو

I

أسلاك التوتر العالي
مشدودة في مملكة البرد
إلى شمال كل موسيقى.

❖

الشمس البيضاء
تتدرّبُ راكضةً وحدها إلى
جبال الموت، الزرقاء.

❖

علينا أن نعيش
مع هذا العشب المشذّب
ومع ضحك السراديب.

❖

الشمس الآن منخفضة.
ظلالنا عملاقة.
قريباً يدخل كل شيء في الظل.

II

أزهار الأوركيديا.

ناقلات النفط تنزلق بعيداً.

القمر بدر.

III

حصون قرون وسطى،
مدينة غريبة، اسفينكسات جامدة،
ميادين خالية.

❖

همست الأوراق:
خنزيرٌ بري يعزفُ على الأرغن.
والأجراس رنَّتْ.

❖

والليل يسيل
من الشرق إلى الغرب
بسرعة القمر.

IV

يعسويان

متشابكان

حلّقا بأجنحةٍ هادرة.

❖

حضور لله.

في نفق أغنيات العصافير

يُفْتَحُ بابٌ مغلق.

❖

سنديان وقمر.

نور وكواكب صامتة.

بحر بارد.

من الجزيرة ١٨٦٠

I

في أحد الأيام عندما كانت تغسل على الفرضة
ارتفع برد المضيق عبر يديها
وإلى داخل الحياة.

تجمَّدَ الدمع وتحوَّل إلى نظارات.
رفعت الجزيرة نفسها فوق العشب
ورفرفت راية الرنكة في العمق.

II

لحقت به حشود الجدري
واستوطنت في وجهه.
يحدق بالسقف ممدداً.

كيف تم التجذيف نحو الصمت.
بقعة الحاضر المنسابة إلى الأبد،
نقطة الحاضر النازفة إلى الأبد.

صمت

أمضي قدماً، إنهم مدفونون.
تنزلق غيمة فوق قرص الشمس.

الجوع مبنى عال
يتنقل في الليل

في غرفة النوم ينفتحُ عمود نفق المصعد
المظلم، نحو الأحشاء.

أزهار في الخندق. لحن بوق منتظم وصمت.
أمضي قدماً، إنهم مدفونون. . .

أواني المائدة تحيا في قطيع كبير
في عمق كبير حيث الأطلنطي قاتم.

منتصف الشتاء

شعاع أزرق
يتدفق من ثيابي.
منتصف الشتاء.
صليل دفوف جليدية.
أُغْمِضُ عينيَّ.
هناك عالم أخرس
هناك شق
يهرب منه الموتى خفية
إلى ما وراء الحدود.

مخطط من ١٨٤٤

وجه ويليام تيرنر أسمر من تقلّب الجو
حاملة لوحاته موضوعة وسط مكاسر الموج.
نقتفي الكبل الفضي الأخضر حتى في الأعماق.

يخوض في ماء المنحدر الضحل لمملكة الموت.
قطار يدخل المحطة. اقترب.
المطر، المطر يبحر فوق رؤوسنا.

اللغز الكبير

صخرة النسور

زواحف خلف زجاج مرباها
جامدة بشكل غريب.

امرأة تنشر غسيلها
في الصمت.
الموت في منجى من الريح.

روحي تنزلق
في أعماق التربة
ساكنة كمثل مذنّب.

واجهات

I

في نهاية الطريق أرى السلطة،
إنها تشبه بصلة
بطبقات متراكبة
تنفصل واحدة بعد الأخرى.

II

تفرغ المسارح. إنه منتصف الليل.
أحرف تشتعل في الواجهات.
لغز الرسائل التي لم يُرَدّ عليها
يغرق في هذا التوهج البارد.

نوفمبر

عندما يضجر السفاح يصبح خطراً.
السماء الملتهبة تلتف على نفسها.

دقات تُسْمَع من زنزانة إلى زنزانة
والفضاء يتدفّق إلى الأعلى من الأرض المتجلدة.

تلمع بعض الحجارة كما تلمع البدور.

ثلج يتساقط

تأتي الجنازات متراصة
كمثل لافتات الطريق التي تزداد
كلما اقتربنا من المدينة.

نظرات آلاف البشر
في أرض الظلال الطويلة.

جسر يرتفع
ببطء
مباشرة في الفضاء.

توقيعات

يجب أن أعبر
العتبة المظلمة.
قاعة.
الوثيقة تشع بيضاء.
ظلال كثيرة تتنقل فيها
كلها تريد أن توقعها.

إلى أن وصل إليَّ الضوء
وطوى الزمن.

أشعار الهايكو

دير اللاما

بجنائنه معلقة.

جداريات معارك.

جدار اليأس. . .

بلا أوجه

تأتي الحمائم وتذهب.

أفكار واقفة
كقطع الخزف
في حديقة القصر.

أقف على الشرفة
في قفص بقضبان من خيوط الشمس ـ
كمثل قوس قزح.

يهمهم في الضباب.
بعيداً، زورق صيد :
نُصِبَ فوق المياه.

مدن تتلألأ:

نغمات، أساطير، رياضيات -

إلا أنها مختلفة.

II

ذكر الرّنة في وجه الشمس.

البعوض يخيط ظله ويخيطه

بالأرض.

III

ريح لاذعة

تجتاز هذه الليلة البيت ـ

أسماء الأرواح الشريرة.

صنوبرات متزغبة

في التراب العضوي المأساوي نفسه.

باستمرار دائماً.

محمول على الظلمة.

التقيت بظل كبير

في زوج من العيون.

شمس نوفمبر. . .
ظلي العملاق يسبح
ويصبح سراباً.

هذه الأنصاب الكثيرة
التي خرجت للتجوال.
أسمع صوت اليمامة.

ينحني الموت

عليَّ، سؤال شطرنج.

والجواب عندها.

IV

غابت الشمس.

تطل قاطرة البواخر

بوجهها البولدوغي.

فوق نتوء صخري

يبدو الشق في جدار الأقزام الخرافيين.

الحلم، جبل من الجليد.

فوق الشواطئ الصخرية
تحت الشمس ـ ماعز
كان يرعى النار.

V

وزهرة الأفعى ، زهرة الأفعى
ترتفعُ في الإسفلت
كمثلِ شحّاذ.

هذه الأوراق الداكنة

ثمينة

كمثل مخطوطات البحر الميت.

VI

على رف في
مكتبة المجانين
كتاب العظات غير ملموس.

انهض من المستنقع!

السلور(*)

يرتج ضحكاً

عندما تدق الصنوبرة الثانية عشرة.

(*) السلور نوع من السمك الذي ينشط في الليل ويعيش في المستنقعات. يتخاطب هذا النوع من السمك عبر [illegible] صوت خاص به. ومن المعروف أنه عندما تكون الشمس في منتصف السماء تكون الساعة الثانية عشرة. ولكن [illegible] الشاعر الصورة مبهمة إذ على الرغم من أن هذا السمك ينشط في الليل يختار الشاعر أن يقول ان الصنوبرة تدق [illegible] عشرة.

سعادتي كبرت
والضفادع غنت في
مستنقعات بوميرانية.

يكتب، يكتب. . .

سال الدبق في الأقنية.

قارب نقل في الإستكس(*).

(*) نهر الإستكس كما تروي الميثولوجيا اليونانية يوجد في باطن الأرض ويمر بين مملكتي الموت والحياة.

اذهبْ صامتاً كالمطر،

واجه الأوراق الهامسة.

اسمعْ ساعة الكرملين!

VII

غابة مدهشة

يعيش فيها الله بلا مال.

الجدران مضاءة.

ظلال زاحفة. . .

نحن تائهون في الغابة

في قبيلة الفطر.

عقعق أسود وأبيض

يركض بعناد متعرّجاً

في الحقول.

انظر كيف أجلس

كمثلِ قاربٍ سُحِبَ إلى الشاطئ.

أنا هنا سعيد.

الدروب تترنَّح

تحت أعنة الشمس.

من ينادي هناك ؟

VIII

ينهض العشب ـ
وجهه مسلة رونيّة
نُصِبَتْ للذكرى.

هنا صورة قاتمة.

مطلية بفقر.

أزهار في ثياب الا تهام.

IX

عندما تجيء الساعة
ترتاح الريح العمياء
على الواجهات.

كنت هناك أنا أيضاً ـ
على جدار أبيض كلسي
يتجمّع الذباب.

هنا تماماً تلتهب الشمس. . .

سارية بأشرعة سوداء

من زمن قديم.

اصمد أيها العندليب!
سيصعد ذلك من الأسافل -
نحن متنكرون.

X

ينحني الموت

ويكتب على وجه البحر.

تتنفَّسُ الكنيسة ذهباً.

حدث شيء ما.

أضاء القمر الغرفة.

الله وحده يعلم ذلك.

تَصَدَّع السقف

وأمكن للميت أن يراني.

هذا الوجه.

أصغي إلى هطول المطر
أهمس سراً
لكي أصل إلى هناك.

مشهد مسرحي على الرصيف.

يا للهدوء المدهش ـ

الصوت الداخلي.

XI

وحي.

شجرة التفاح العتيقة.

البحر قريب.

البحر جدار.
اسمعْ صراخ النوارس -
إنها تُلَوِّح لنا.

ريح الله في ظهرنا.

طلقة نار تجيء بلا صوت.

حلم طويل جداً.

صمت رمادي اللون.

العملاق الأزرق يمرُّ أمامي.

نسيم بحريٌّ بارد.

ريح عظيمة وهادئة

من مكتبة البحر.

حيث أقدر أن أستريح.

طيور - بشر.

شجرات التفاح مزهرة.

اللغز الكبير

تسع قصائد هايكو

من سجن هلبي للقاصرين

(١٩٥٩)

يقذفون كرة القدم

ارتباك مفاجئ ـ طارت

الكرة فوق الجدار.

غالباً ما يُحْدِثون ضجة

كي يخيفوا الوقت

بركضٍ أسرع.

حياة أحرفها خاطئة.

لا يزال الجمال حياً

كمثل الوشم.

عندما اعتُقِلَ الهارب

كانت جيوبه مليئة

بفطر الأنانية.

ضوضاء المصانع

وخطوات الحارس الثقيلة في برج المراقبة،

أربكت الغابة.

ترتفع البوابة

نقف في ملعب السجن

في فصل جديد.

مصابيح الجدار تضاء ـ
طائر الليل يلمح بقعة
ضوء وهمي.

ليل ـ شاحنة

تمر، أحلام

السجناء ترتجف.

يشرب الولد حليباً
ويغفو آمناً في زنزانته،
أمٌّ من حجر.

توضيح:

زار توماس ترانسترومر سنة ١٩٥٩ صديقه عالم النفس والشاعر أوكي نوردين الذي كان مديراً لسجن هلبي للقاصرين الذي يقع خارج مدينة اسكلستونا.

كبطاقة معايدة لرأس السنة أرسل توماس في العام ذاته ثماني قصائد هايكو إلى أوكي نوردين وزوجته أوللا. هذه القصائد تنشر للمرة الأولى بعد مرور اثنتين وأربعين سنة على كتابتها. وقد أُلْحِقتْ بها قصيدة تاسعة، لأسباب غير معروفة. ونشرت القصائد جميعا في كتيب مستقل سنة ٢٠٠١ في استوكهولم.

الفهرس

توماس ترانسترومر (تعريف بالشاعر) ٥

إلى القارئ العربي بقلم توماس ترانسترومر ١١

مقدمة بقلم أدونيس ١٣

مقدمة المترجم ٢٣

١٧ قصيدة ـ ١٩٥٤ ٢٧

استهلال ٢٩

أرخبيل في الخريف ٣٣

عاصفة ٣٥

مساء ـ صباح ٣٦

اللازمة ٣٧

خمسة مقاطع شعرية إلى ثورو ٤١

غوغول ٤٣

حكاية بحارة ٤٥

اللازمة وطباقها ٤٧

تأمل مضطرب ٤٩

الحجارة ٥٠

تماسك ٥١

صباح وممر ٥٢

راحة في القيدوم الهادر ٥٣

الانقلاب اليومي ٥٤

أغنية ٥٦

مرثاة ٦٥

خاتمة ٧١

أسرار على الطريق ـ ١٩٥٨ ٧٧

بيوت سويدية منعزلة ٨١

هو الذي أيقظته أغنية على السطوح	٨٤
لوحة الطقس	٨٥
الأمزجة الأربعة	٨٦
ألحان حرة	٨٩
قيلولة	٩٣
إزمير في الساعة الثالثة	٩٤
أسرار على الطريق	٩٩
آثار	١٠٠
ابتهال	١٠١
رجل من بنين	١٠٥
حلم بالاكيرف	١٠٩
بعد النوبة	١١٧
قواعد السفر (البلقان ـ ١٩٥٥)	١١٩
السماء نصف المكتملة ١٩٦٢	١٢٣
الزوجان	١٢٧
الشجرة والمساء	١٢٨
وجهاً لوجه	١٢٩
رنين	١٣٠
عبر الغابة	١٣١
نوفمبر بانعكاساته الفروية النبيلة	١٣٣
السفر	١٣٦
C-dur	١٣٩
ذوبان الثلج ظهراً	١٤١
عندما شاهدنا الجزر مرة ثانية	١٤٣
من الجبل	١٤٥
إسبريسو	١٤٩
القصر	١٥٣
سيروس	١٥٥

في دلتا النيل ١٥٧
طيف قاتم سابح ١٦١
لامنتو ١٦٢
Allegro ١٦٤
السماء نصف المكتملة ١٦٦
موسيقى حالمة ١٦٨
ليلة شتوية ١٧٠
تناغمات وآثار - ١٩٦٦ ١٧٣
بورتريه مع تعقيب ١٧٥
لشبونة ١٧٧
من دفتر يوميات إفريقية ١٧٨
قمة ١٨٠
احتفاءات ١٨١
صيغ الشتاء ١٨٥
طيور الصباح ١٨٨
حول التاريخ ١٩٠
عزلة ١٩٣
بعد موت شخص ١٩٨
أوكلاهوما ١٩٩
سهل الصيف ٢٠١
طوفان على الأرض الداخلية ٢٠٢
تحت الضغط ٢٠٥
فضاءات مفتوحة ومغلقة ٢٠٦
فنان في الشمال ٢٠٨
في الهواء الطلق ٢١٠
موسيقى بطيئة ٢١٣
رؤى ليلية - ١٩٧٠ ٢١٥
الاسم ٢١٧

بضع دقائق ٢١٨
مهلة في تموز ٢١٩
مع النهر ٢٢٠
منطقة حدودية ٢٢٢
سير ٢٢٣
خدمة ليلية ٢٢٦
النافذة المفتوحة ٢٢٨
مقدمات موسيقية ٢٣٠
قامة شامخة ٢٣٣
خزانة الكتب ٢٣٥
دروب ـ ١٩٧٣ ٢٣٧
إلى أصدقاء خلف الحدود ٢٣٩
ذوبان الثلج ـ ٦٦ ٢٤٠
خطاطة في أكتوبر ٢٤١
أكثر بعداً ٢٤٢
الحرس الأمامي ٢٤٤
على مدى الشعاع ٢٤٧
نظرة تخترق التربة ٢٥٠
مساء من كانون الأول ـ ٧٢ ٢٥٢
الأبرشية المشتتة ٢٥٣
آخر أيار ٢٥٥
مرثاة ٢٥٦
بلطيقيات (البحيرات الشرقية) ـ ١٩٧٤ ٢٥٧
حاجز الحقيقة ـ ١٩٧٨ ٢٧٩
مواطنون ٢٨١
ممر المشاة ٢٨٣
مضاءة ٢٨٤
بداية رواية لليلة في نهاية الخريف ٢٨٦

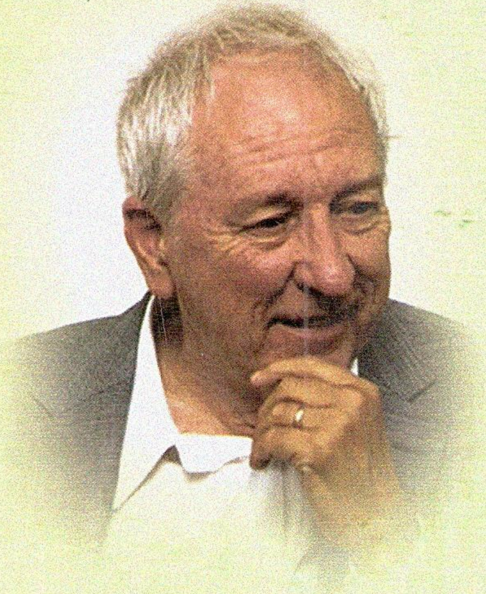
إلى ماتس وليلي ٢٨٨
في شتاء ١٩٤٧ ٢٩١
شوبيرتيانا ٢٩٣
قاعة العرض ٢٩٨
تحت الصفر ٣٠٧
المركب ـ القرية ٣٠٩
جبال سوداء ٣١٠
باتجاه البيت ٣١١
بعد جفاف طويل ٣١٢
زاوية في الغابة ٣١٤
فانشال ٣١٥
الساحة الوحشية ـ ١٩٨٣ ٣١٧
استراحة قصيرة في حفلة الأرغن ٣١٩
في آذار ٧٩ ٣٢٣
الذكريات تراني ٣٢٤
نظرة الشتاء ٣٢٥
المحطة ٣٢٧
أجوبة رسائل ٣٢٨
إعصار إيسلندي ٣٣٠
شقائق النعمان ٣٣٢
البيت الأزرق ٣٣٤
عينا قمر اصطناعي ٣٣٦
ألف وتسعمئة وثمانون ٣٣٧
بطاقات سوداء ٣٣٨
تشطيبات نارية ٣٣٩
خطوات عديدة ٣٤٠
بوستلوديوم ٣٤١
ندوة الحلم ٣٤٢

طرس	٣٤٥
أجراس متناغمة	٣٤٩
مولوكاي	٣٥٤
من أجل الأحياء والموتى ـ ١٩٨٩	٣٥٥
القبطان المنسي	٣٥٧
ستة شتاءات	٣٦٠
العندليب في باديلوندا	٣٦٢
رباعيات أول أيار	٣٦٣
تهويدة	٣٦٤
شوارع في شانغهاي	٣٦٥
في قلب أوروبا	٣٦٨
مناشير	٣٦٩
الداخل لا نهائي	٣٧٠
فيرمير	٣٧٥
أقواس رومانية	٣٧٨
هجائية	٣٧٩
بورتريه نسائية ـ ١٨٠٠	٣٨٠
أشكال قروسطية	٣٨١
بريد جوي	٣٨٢
مادريغال	٣٨٤
الدبور الذهبي	٣٨٥
جندول الحزن ـ ١٩٩٦	٣٨٩
نيسان وصمت	٣٩١
بلاد غير مستقرة	٣٩٢
أوراق كتاب الليل	٣٩٣
جندول الحزن رقم ٢	٣٩٥
طبيعة بأكثر من شمس	٤٠٠
تشرين الثاني في ألمانيا الديمقراطية السابقة	٤٠١

من تموز ٩٠	٤٠٣
الوقواق	٤٠٤
ثلاثة مقاطع شعرية	٤٠٦
كما لو كنت طفلاً	٤٠٧
مدينتان	٤٠٨
الضوء يتدفق إلى الداخل	٤٠٩
رحيل ليلي	٤١٠
هايكو	٤١١
من الجزيرة ١٨٦٠	٤١٦
صمت	٤١٧
منتصف الشتاء	٤١٨
مخطط من ١٨٤٤	٤١٩
اللغز الكبير	٤٢١
صخرة النسور	٤٢٣
واجهات	٤٢٤
نوفمبر	٤٢٥
ثلج يتساقط	٤٢٦
توقيعات	٤٢٧
أشعار الهايكو	٤٢٩
تسع قصائد هايكو من سجن هلبي للقاصرين ١٩٥٩	٤٧٧

«أُنجز هذا الكتاب بالتعاون مع المعهد السويدي»

TOMAS TRANSTRÖMER



يحاول ترانسترومر أن يقول في شعره وضعه الإنساني، وأن يقدّم هذا الشعر بوصفه فنّاً يُفصح عن هذا الوضع. ولئن كانت جذوره الشعريّة منغرسة في أرض الشعر، في أصوله الكلاسيكيّة والغنائيّة والرّمزية، فإنّه في الوقت نفسه يَنخَرطُ في حركيّة الحداثة، واقفاً على عتبة المستقبل. وهو في ذلك لا يُصنَّف، ولا يُؤسَر في مدرسة. إنه، في آنٍ، واحدٌ وَمُتعدّد. وفي هذا ما يُتيحُ لنا أن نَرى في شعره كيف أنّ المرئيّ واللاّمرئيَّ تركيبٌ واحدٌ تنبعث منه ذات الشاعر، كأنّها عِطرٌ يَفوحُ من وَردةِ العالم.

أدونيس